الفصل الثالث

تطور العلاقة بين الأسرة والمجتمع

١ – مقدمة .

٢ – تنوع أنماط الأسرة فى العصر الحاضر .

٣ – الأسرة الممتدة .

٤ – هل الفرق بين الأسرة القديمة والأسرة الحديثة مجرد قضية حجم ؟

٥ – الأسرة النووية .

٦ – المكانة الموروثة والمكانة المكتسبة .

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الثالث

تطور العلاقة بين الأسرة والمجتمع

١ – مقدمة :

إذا وضعنا كافة الظروف التاريخية التى مرت بها الأسرة أمام ناظرينا ، فإننا سوف ندرك مباشرة وبكل وضوح أن تطور الأسرة والمجتمع لم يتم أبدا بشكل عشوائى أو عفوى ، وإنما كان وما زال يخضع لقواعد وأصول عامة ، يمكننا أن نتعرف عليها ونضع أيدينا عليها . ولما كان المجتمع الإنسانى يحفل بصور شتى من التنوع فى جوانب حياته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والدينية والثقافية ، فإنه من المنطق أن نتوقع إزاء ذلك تنوع أنماط الأسر الإنسانية بصفة عامة . كما أنه سوف يتعين علينا أن نسأل أنفسنا : ماهى الأمور والجوانب التى تتغير فى حياة الأسرة (أو القابلة للتغير) ، وما هى الأمور التى تتصف بقدر من الثبات والاستقرار .

على أننا يجب أن نتفق بادئ ذى بدء على أننا لانتوى أن نقدم عرضا لكافة أنماط الأسرة فى مراحل تطورها المختلفة وفى ظل الظروف الاجتماعية المتفرعة ، فتلك دراسة يجب أن يتولاها باحث فى تاريخ الأسرة يوقف جهده عليها وحدها لكى يتتبع مراحل تطورها وتنوع أشكالها منذ أقدم العصور وحتى العصر الحاضر . أما نحن فسوف نقصر اهتمامنا على أنماط الأسرة الشائعة أو المعروفة فى العصر الحاضر فقط ، على أساس أن دراستنا كلها تدور حول الأسرة فى المجتمع المعاصر .

٢ – تنوع أنماط الأسرة فى العصر الحاضر :

فيما يتعلق بتنوع أنماط الأسرة فى العصر الحاضر ، يجب أن نتفق فى البداية على تقرير ملاحظتين أساسيتين :

الأولى : أنه لايوجد مجتمع (ذو حجم معقول) على وجه هذه الأرض يقتصر على نمط واحد

فقط من الأسر لايعرف سواه ، فكل مجتمع يعرف فى نفس الوقت أكثر من نمط من أنماط الأسرة[١] .

الثانية : أن كل نمط من أنماط المجتمعات القائمة فى عالم اليوم لديه نمط معين سائد من أنماط الأسرة ، على حين تعد الأنماط الأخرى الموجودة أنماطا فرعية أو ثانوية .

فإذا قسمنا المجتمعات القائمة فى عالم اليوم إلى ثلاثة أنماط رئيسية على النحو التالى :

١ – المجتمعات الصناعية الرأسمالية (الغربية) .

٢ – المجتمعات الصناعية الاشتراكية (الشرقية) .

٣ – مجتمعات العالم الثالث .

إذا اتفقنا على هذا التقسيم الثلاثى فإننا سنلاحظ أن كل نوع من تلك الأنواع يعرف نمطاً أسريا رئيسيا إلى جانب طائفة من الأنماط الأسرية الفرعية . ولكن يجب أن نلاحظ أن بلاد العالم الثالث تتميز بقدر من التنوع فيما بينها يفوق بكثير التنوع الموجود داخل كل نوع من النوعين الأولين ، بل أنه يفوق فى كثير من الأحيان التنوع الموجود بين المجتمعات الغربية والشرقية . بحيث أننا نجد البعض يميل إلى تصنيف المجتمعات القائمة فى عالم اليوم إلى نوعين فقط بدلا من ثلاثة : المجتمعات الصناعية (المتقدمة) ومجتمعات العالم الثالث (النامية) . ولكننا لن نأخذ بوجهة النظر هذه لأسباب سوف تتضح فى ثنايا الكلام[٢] . فالأسرة (بمختلف أنماطها) الموجودة فى المجتمعات الرأسمالية والاشتراكية تختلف اختلافا بعيدا عن الأسرة الهندوكية أو الأسرة اليابانية[٣] . وهى تختلف كذلك عن الأسرة فى المجتمعات العربية ، وعن الأسرة فى الثقافات الافريقية السوداء وفى بلاد أمريكا اللاتينية .

---

(١) انظر مؤلف رينيه كونيج : دراسات فى علم الاجتماع العائلى :

René Konig, Materialien zur Soziologie der Familie, 2 edition, Kolm, 1974, P. 131 ff.

خاصة الفصل المعنون : « مشكلات قديمة وقضايا جديدة فى علم الاجتماع العائلى » ، حيث ناقش فيه كونيج هذه القضية بالتفصيل وعرض لكثير من الشواهد التى تؤيد هذه الحقيقة الأساسية التى ليست للأسف بديهية لدى كل دارسى الأسرة ، كما تبدو لنا الآن . حيث يتصور البعض خطأ – أن المجتمعات الصناعية المعاصرة لاتعرف سوى نمط الأسرة النووية ، على حين تقلصت كل أشكال الأسرة الأخرى . وسنعود الى هذه القضية فيما بعد .

(٢) استعرض ويليام جود تلك النقطة تفصيلا ، وقدم عديدا من الشواهد عليها فى كتابه : الثورة العالمية وأنماط الأسرة ، مرجع سابق .

Reuben Hill and Rene Konig, (eds.) **Families in East and West. Socialization Process and Kinship Ties,** Paris The Hague, 1970. especially, Seiichi Kitano, «Dozoku and Kindred in Japan.»

ومع كل ذلك فإننا لا يمكن أن نجد نمطا موحداً من الأسرة فى أى مجتمع على الأرض ، أعنى أنه لا يمكن أن يكون هناك نمط مسيطر فى كل أرجاء المجتمع . وإنما هناك تنوع حسب المناطق الجغرافية داخل كل مجتمع ، وهناك تنوع حسب البناء الطبقى الاجتماعى داخل كل مجتمع . ومن أبرز مظاهر التفاوت بين أنماط الأسرة ذلك التناقض الموجود فى كل المجتمعات المتقدمة والمتخلفة على السواء (باستثناء المجتمعات الاشتراكية) بين الريف والحضر . إذ نجد أن النمط الأسرى السائد فى أغلب مدن العالم هو الأسرة النووية بأشكالها الحديثة المختلفة (التى سنفصل فيها الكلام فيما بعد) . على حين توجد فى المناطق الريفية الأنماط الأسرية ، الأقدم عهدا . وإن كانت تجدر الإشارة إلى أن تقدم التصنيع الزراعى واستخدام الأساليب التكنولوجية المتقدمة فى الزراعة ، وكذلك زيادة انتشار وسائل الاتصال الجماهيرى فى الريف سوف يعمل على تضييق الهوة بين الريف والمدينة ، وتحقيق نوع من التجانس والتقارب فى أنماط الأسرة هنا وهناك . ولذلك نتوقع أن يخف التناقض بين الريف والمدينة بمرور الوقت وتقدم جهود التنمية لتشمل رقعة المجتمع كلها بشكل متقارب[٤] .

ويختلف الموقف عن ذلك فى البلاد الاشتراكية ، حيث أدى سيطرة الاتجاهات الجماعية فى العمل الزراعى إلى القضاء على كافة الأشكال التقليدية من الأسرة دفعة واحدة وفى فترة زمنية وجيزة . وظهر نمط جديد من التنظيم الجماعى (فى المزارع الجماعية) الذى يقوم على صورة معينة معدلة من الأسرة النووية . ولم يعد فى هذا التنظيم الاجتماعى الاقتصادى مكان للأشكال القديمة السابقة على عصر التصنيع أو بالأحرى السابقة على عصر الثورة الاشتراكية .

وإذا انتقلنا إلى مسرح الحياة فى المدينة المعاصرة ، فسنجد الصورة تتسم كذلك بقدر ملحوظ من التنوع النسبى . يتجلى هذا التنوع أولا وأساسا فى اختلاف انماط الأسرة السائدة فى الطبقات الاجتماعية المختلفة . ويتجلى بعد هذا فى التنوع الأسرى بين القطاعات المهنية المختلفة ، إذ لا شك أن الإطار الاقتصادى لحياة رب الأسرة والأفراد الذين يساهمون فى اعالتها يؤثر بشكل مباشر فى نمط هذه الأسرة .

وتبدو تلك التغيرات والتنوعات بأوضح أشكالها إذا القينا نظرة على الأسرة فى مدن البلاد

---

(٤) هناك دراسة طريفة استعرضت بشكل مفصل واقع الأسرة (خاصة من النمط النووى) فى المناطق الريفية من المجتمعات الغربية الصناعية المعاصرة . واستطاع مؤلفها أن يقيم الدليل الواضح على صحة هذا الاتجاه ، انظر :

Hill and Kong, (eds.) **Families in East and West, op.** cit.,:

— Garritt A. Kooy, «Rural Nuclear Family Life in Contemporary Western Society», PP. 270-317.

النامية . فتلك المؤسسة الاجتماعية تعانى من أكثر التغيرات الثقافية والاجتماعية حدة وعنفا . حيث نجد أن المهاجر بمغادرته لقريته أو بيئته الريفية واتجاهه إلى المدينة يهجر بيئة كان يتمتع فيها بالانتماء الوثيق إلى أسرة معينة . فإذا واجه المدينة منفردا فى البداية (بدون أسرته) ، فسوف يحس نفسه وسط بيئة غريبة عليه نسبيا . أما إذا هبط المدينة بأسرته فسيجد أيضا أن البيئة الحضرية تمارس تأثيرات فعالة فى الأسرة ، وتؤدى إلى احداث بعض التغيرات الدقيقة فيها . ومن الأمور التى تؤثر حتما فى الأسرة كنظام اجتماعى : ضرورة التكيف مع الظروف الجديدة التى تواجهها فى البيئة الحضرية ، وازدحام المساكن الذى تجده الأسرة فى المدينة ، والتعرض لأسلوب الحياة الحضرى الجديد . ومن شأن هذه المؤثرات بصفة عامة أن تعجل عملية تخلى الناس عن أساليب حياتهم القديمة . من هذا مثلا أن يجد عضو الأسرة نفسه مضطرا تحت تأثير الضغوط المتزايدة إلى تكوين أنواع جديدة من الالتزامات التى لم يكن يعرفها من قبل فى القرية . وسيكون لتلك الالتزامات تأثرها فى أنماط الالتزام الأسرى والقرابى التى كان يألفها فى الماضى .

ويتعرض المهاجر فى المدينة لتناقض مستمر فى رقابة الأسرة على أفرادها ، ويزداد ذلك وضوحا بصفة خاصة إذا كان الفرد قد قدم إلى المدينة منفردا وليس عضوا فى أسرة . ولكن حتى إذا كانت الأسرة بأكملها أو قطاع كبير منها قد هاجر معا إلى المدينة ، فإن الفرد يدخل فى ظروف تحمله تدريجيا على الاضطلاع بدور جديد داخل الأسرة . فقد تضطره الظروف إلى العمل بعيدا عن باقى أفراد الأسرة . وقد يكون علاقات جديدة من شأنها أن تؤثر فى علاقاته بسائر أفراد الأسرة وتحدها .

وقد تنهار الأنماط التقليدية تحت وطأة البيئة الجديدة . من هذا مثلا أن الإجراءات المعتادة لتكوين علاقة الزوج بزوجته يمكن أن تتعدل تعديلا كبيرا فى البيئة الحضرية الجديدة . وقد يكون من نتائج ذلك أن الفرد بدلا من أن يستعين بالطقوس والممارسات المعتادة المرتبطة باختيار شريك الحياة المقبل ، قد يجد نفسه – خاصة إذا كان قد جاء إلى المدينة دون أسرته – متورطا فى مجموعة من العلاقات غير الرسمية مع أفراد من الجنس الآخر ليست هى علاقة الزواج التى كان يعرفها فى الماضى ، وإنما هى مجموعة من صور المعاشرة . والواقع أن الفرد بسلوكه هذا لا يعدل فقط من العادات الريفية التى اعتادها ، وإنما يمكن أن يورط نفسه فى مجموعة من العلاقات الجنسية التى قد تكون ذات وطأة شديدة على عاداته الأخلاقية القديمة .

أما النساء بصفة خاصة فيجدن أن البيئة الحضرية تعدل تعديلا بعيد المدى من وضعهن ، وأدوارهن وأوجه النشاط اللائى يمارسنها . أبرز هذه التغيرات تلك التغيرات القانونية والاقتصادية

فى علاقاتهن مع باقى أفراد أسرهن(*) . فقد تجد الزوجة أن القواعد القانونية المختلفة التى تمس النساء فى المدينة يكون لها تأثيرها الهام فى مكانتها القانونية . من هذا مثلا أنها قد تصبح قادرة على حيازة ممتلكات حقيقية باسمها الخاص . فضلا عن هذا نجد أنه بينما تعتبر الزوجات والأطفال فى القرية مصدر قوة اقتصادية بسبب قدرتهم على العمل فى الحقول ، نجدهم يمكن أن يصبحوا فى المدينة عبئا اقتصاديا بسبب نفقات اعالتهم . وقد تجد النساء أنفسهن – من ناحية أخرى – يتعرضن لتغيرات دقيقة ، قد لاتكون ظاهرة ، فى علاقاتهن بأزواجهن ، ويبدو أن الخبرة تشير – مثلا إلى احتمال زيادة النمط الزواجى فى علاقاتهن بأزواجهن ، لا مجرد السير المريح الذى كانت تكلفه نظم تكوين الزيجات فى المجتمعات الريفية . ومن الممكن أن تتعرض مسئولياتهن والتزاماتهن تجاه أزواجهن لتغيرات جوهرية .

كما قد تجد الأسرة الحضرية فى البلاد النامية أن التزامات الضيافة قد تعدلت بعض الشىء عن النماذج الريفية الأصيلة ، والمألوف على سبيل المثال أن تبدى الأسرة الحضرية كرم الضيافة لأى واحد من أبناء إحدى الأسر القريبة لدى وصوله حديثا إلى المدينة بحثا عن مستقر له فيها . والمتوقع أن يجد له أقاربه الذين سبقوه إلى المدينة مكانا له فى نطاق الأسرة أو يقدموا له على الأقل الطعام والممكن على أساس مؤقت أو لمدة طويلة لحين استقرار أحواله . وليس لمثل هذه الضيافة الإجبارية حدود قانونية ، مما يترتب عليه احتمال أن تمتد إقامة كل قادم جديد من القرية إلى المدينة داخل هذا النسق لفترات طويلة من الزمن . ويعتبر هذا الالتزام بالاستضافة – من بعض نواحيه – غير جديد على ابن القرية القديم الذى تعود المشاركة فى تحمل أبناء القرية .

وقد يتطور هذا الالتزام – من ناحية أخرى – على علاقة لازمة كل اللزوم للبقاء والاستمرار فى البيئة الحضرية الجديدة . وقد يكون دخل الأسرة الحضرية من الانخفاض بحيث يكون من اللازم استكمال هذا الدخل من خلال أى اسهامات ، مهما تكن ضآلتها ، يقدمها المهاجرون حديثو الوصول من الريف إلى المدينة . فهذه المعاملة التى توازى الايواء والإطعام – سواء بمقابل أو بدون مقابل – تعتبر مهمة شاقة فى البيئة الحضرية حيث لاتتيح ظروف المعيشة بصفة عامة أكثر من حجرةواحدة للأسرة نفسها . ناهيك بالأشخاص الإضافيين .

(*) Meran Mc Culloch, «Survey of Recent and Current Field Studies on the Social Effects of Economic Development in Inter-Tropical Africa», in: UNESCO, Social Implication of Industrialization and Urbanization in Afric South of the Sahara, paris UNESCO. 1956, pp. 216-219.

نقلا عن جيرالد بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، ترجمة وتقديم محمد الجوهرى ، ونشر دار نهضة مصر للطباعة والنشر (بالتعاون مع مؤسسة فرانكلين) ، القاهرة ، ١٩٧٢ ، ص ص ١٧٢ – ١٧٥ .

ونظرا لما ينطوى عليه ذلك من مزايا اقتصادية ، نجد من الشائع تماما أن تأوى الأسرة بعض الغرباء وتقدم لهم الإقامة الكاملة (أى السكن والطعام ، أو السكن فقط) ، فيشاركوا الأسرة حياتها ومصيرها . وقد لايكون هؤلاء الأشخاص مهاجرين من نفس المنطقة أو نفس القرية التى جاءت منها الأسرة ، فيدخلون بذلك فى صراعات محتملة راجعة إلى الاختلافات فى البيئة وفى العادات الغذائية ، وما إلى ذلك من أمور[٦] .

يضاف إلى كل هذا تيار الهجرة من الريف إلى المدينة ، خاصة فى البلاد النامية ، لايتوقف أبدا ، بل أنه بالفعل يزداد اندفاعا مع تقدم التصنيع والخدمات فى المدينة . ومن شأن ذلك أن يؤدى إلى إدخال أنماط أسرية جديدة إلى مجتمع المدينة . والأرجح ألا تستطيع تلك الأنماط الأسرية الجديدة الوافدة من الريف أن تتكيف بسرعة وبشكل كامل مع ظروف الحياة فى المدينة . مما يترتب عليه ظهور العديد من ألوان الصراع والتوترات والمشكلات . ونضرب على ذلك مثالا واضحا هو احتفاظ أغلب الأسر المهاجرة إلى المدينة بنفس سلوكها الإنجابى الذى ألفته فى الريف ، فيتراكم لديها عدد كبير من الأطفال ، بحيث تزداد حاجتها إلى مساكن أكثر اتساعا ، هذا فى الوقت الذى تعانى فيه المدينة التى يعيشون فيها من مشكلة إسكان خطيرة مستفحلة ، ويلخص بريز موقف الأسرة المهاجرة إلى المدينة فى مجتمعات البلاد النامية بقوله :

« يجب علينا عند النظر إلى سكان الحضر .. ان نتذكر دائما أن المهاجرين يتدفقون على المدينة من أماكن لها ثقافتها الخاصة التى قطعت شوطا بعيدا فى سبيل الرقى والاكتمال . ويحمل هؤلاء المهاجرون الكثير من عناصر تلك الثقافة معهم إلى المدينة دون أن يدروا إلى أى حد سيحاولون رفضها والتخلص منها . وليس هؤلاء المهاجرون بالشخصيات التافهة التى لا وزن لها ، ولا هم عجينة طيعة سهلة التشكيل . فهم يقدمون إلى المدينة مغلفين بغشاء من التراث القبلى الريفى وبأساليب مستقرة فى السلوك وفى العمل ، وأنماط محددة من الولاء والالتزامات . والأوضاع الاقتصادية ، وأنساق الضبط ، وقنوات الاتصال . وهى جميعا أشياء ليس من السهل أن تموت فى البيئة الحضرية . والواقع أن هذه العادات الاجتماعية تتدعم بشدة من خلال نوع البيئة التى يحتمل أن يهاجر إليها الفرد »[٧] .

ولو أننا استعرضنا بالتفصيل أنماط معيشة الأسرة فى كل من الريف والمدينة ، خاصة فى مجتمعات البلاد النامية ، لاتضح لنا بكل جلاء أن الفرق الرئيسى بين الريف والمدينة يكمن فى أن

---

(٦) انظر بريز ، مجتمع المدينة فى البلاد النامية ، مرجع سابق ، ص ص ١٧٢ – ١٧٥ .

(٧) نقلا عن جيرالد بريز ، المرجع السابق ، ص ص ١٦٨ – ١٦٩ .

الأسرة الحضرية تفقد استقلالها التقليدى بشكل مستمر ومتزايد السرعة . فعلى حين نجد أن الأسرة الريفية – خاصة تلك التى يشتغل أبناؤها بفلاحة الأرض – تستطيع أن تحقق لافرادها جانبا كبيرا من احتياجاتهم المعيشية والاجتماعية ، وهو أمر ينعكس بوضوح فى ازدياد التماسك الداخلى بين أعضائها ، حيث أن المصالح الاقتصادية المشتركة على تدعيم الكيان الأسرى وتقويته هذا فى الوقت الذى نجد هذا التماسك الداخلى أضعف بكثير فى الأسرة الحضرية ، حيث لاتسيطر على أفرادها مصالح اقتصادية مشتركة ، وإنما يخضع وجودها أولا وأخيرا لنوع العلاقات الشخصية القائمة بين أعضائها . فهى تعتمد على البيئة الخارجية المحيطة بها فى اشباع أغلب احتياجاتها ، مما ينعكس بدوره على تنظيمها الداخلى ، ويزيد حساسيتها كمؤسسة لما تعج به تلك البيئة الخارجية من مؤثرات وتيارات . وسوف نعود إلى زيادة هذه النقطة إيضاحا على امتداد هذا الكتاب .

٣ – الأسرة الممتدة :

من الحقائق التى يجب أن نؤكدها فى صدر حديثنا عن الأسرة الممتدة أنها تتفوق على سائر الأنماط الأسرية المعروفة فى العالم الصناعى الغربى والشرقى على السواء . فى درجة الاستقلال التى تتمتع بها . ويكمل تلك الملاحظة ملاحظة أخرى وهى أن الأسرة الممتدة التى كانت سائدة فى العالم القديم (سواء فى الحضارات الشرقية القديمة ، أو فى الحضارات الاغريقية والرومانية) تتفوق على كل الأشكال المعروفة حاليا من الأسر الممتدة (فى بلاد العالم الثالث) فيما كانت تتمتع به من استقلال . وقد تجمعت لدى الدارسين المعاصرين طائفة كبيرة من الشواهد والأوصاف التى تدور حول الأسرة الممتدة القديمة ومن معالم الحياة فيها والعلاقات بين أطرافها . ويأتى على رأس تلك المصادر الكتابات والنصوص الأثرية والتاريخية عن العالم القديم ، وأوصاف الكتاب المقدس ، وبعض الكتابات التاريخية ، الروائية أو الجغرافية ، التى ترجع إلى عصور الإغريق والرومان الأقدمين ، كمؤلفات هوميروس وهيرودوت وغيرهما .

(ا) الأسرة الإغريقية الممتدة :

فيحدثنا هوميروس عن بيت بريامومس حيث يعيش خمسون من الاخوة واثنتا عشرة أختا مع ازواجهن وزوجاتهم وأولادهم جميعا ، وهم يعيشون جميعا فى معيشة مشتركة . يضاف إلى هذا العدد الكبير عدد أكبر منه من الخدم ، والعبيد ، والعمال الزراعيين .. الخ . ومن المهم أن نلاحظ أن لفظ « إخوة » هنا ليس مطابقا تماما لمفهومنا نحن اليوم عن الإخوة (الدمويين) ، وإنما هو

أقرب إلى الدلالة على فئة قرابية ، فهو بذلك مصطلح من مصطلحات القرابة التصنيفية . بمعنى أنه يضم عدا الإخوة والأخوات الدمويين (أى اخوة وأخوات بمفهومنا نحن) أبناء وبنات العمومة والخئولة على اختلاف أنواعهم ، وهم جميعا ينادون بعضهم بعضا بكلمة : أخ . ومن البديهى أن تجمعا قرابيا بمثل هذا الحجم الضخم ، علاوة على هذا العدد الكبير من التوابع ، قادر كل القدرة على أن يعول كل أفراده ويحقق احتياجاتهم أو يكاد . كما أن تجمعا بمثل هذه الضخامة لايمكن أن يقبل بسهولة أى حد من سلطانه وسطوته على أفراده . أنه قد يفرط (لهذا السبب أو ذاك) فى علاقاته الخارجية ، ولكنه لايمكن أن يتسامح بسهولة فى سيطرته على أفراده . لذلك يصف بعض الكتاب هذا النمط من الأسرة المشتركة بأنه دولة ، وليس مجرد جماعة ، وهى بذلك تنظيم يخضع خضوعا مطلقا لكبار السن فيه . وليس أدل على ذلك من أن بعض أرباب تلك الأسر كانوا يسمون أنفسهم « ملوكا »[٨] .

(ب) الأسرة الممتدة فى الهند القديمة :

عرفت الهند فى تاريخها الطويل الأسر الممتدة فى صور وأشكال شتى منذ أقدم العصور وحتى مطالع العصر الحديث . والشىء المتميز فى الأسرة الهندية القديمة أنها كانت فى ذاتها (أى ككيان اجتماعى اقتصادى) محور تقديس وإجلال كافة أفرادها . فهناك حالة توحد بين الأحياء من أفرادها وبين الموتى من أفراد الأسرة ، وهناك توحد بينهم جميعا رئيسا ومرؤوسا ، صغيرا وكبيرا ، وهناك ملكية مشتركة[٩] . فتلك الأسرة عبارة عن جماعة متضامنة الملكية فيها عامة ، والعبادة فيها مشتركة لإله وصى على كل شىء . أما السلطة فكانت أساسا لرئيس الأسرة ، الذى يكون عادة أكبر الذكور المسنين المنحدرين من خط الذكور .

وطبقا للقانون الهندوسى فإن ملكية الأسرة لا تقبل التقسيم أو التوزيع ، مما اضطر الأسر إلى التوفيق بين ثلاثة أجيال أو أكثر حتى أنهم كانوا يعملون ويتناولون طعامهم معا . وإلى جانب الملكية والعمل كان الدين يشكل قوة هامة من قوى توحيد أفراد الأسرة المشتركة سواء بالنسبة للموتى منهم أو الذين لم يولدوا بعد أو الأحياء .

---

(٨) وهو نفس ماكان يفعله أرباب الأسرة فى العهد اليهودى الأول ، كما جاء فى « سفر الملوك » فى الكتاب المقدس .

(٩) اعتمدت فى العرض التالى لنمط الأسرة الممتدة عن قبائل الكورجس فى جنوب الهند على مؤلف بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، ترجمة دكتور محمد الجوهرى وزملائه ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، ١٩٧٨ ، الفصل العاشر : الأسرة والقرابة . وقد أسس بوتومور هذا العرض على دراسة شرنفاس :

M.N. Srinivas, Religion and Society Among the Coorgs of South India, Ch, 5: «The cult of Okka.»

ويمكننا أن نعتمد فى توضيح هذه الخصائص العامة على الدراسة الدقيقة التى أجراها شرنفاس عن الأسرة المشتركة فى قبائل الكورجس بجنوب الهند . وهى قبائل تعتبر نفسها جزءا من طائفة الكشتارية الطائفة التى تحتل المرتبة الثانية من حيث المكانة بين الطوائف الهندية المختلفة .

وتمثل الأوكا Okka أو الأسرة الممتدة المنتسبة إلى الأب والمقيمة فى مسكنه الجماعة الأساسية لدى قبائل الكورجس . ومن المستحيل أن نجد أحد أفراد هذه القبائل منفصلا عن الأوكا التى هو عضو فيها . وتؤثر الأوكا على حياة الفرد ، كما أنها تحدد علاقاته بالعالم الخارجى . أما الذين لاينتمون إلى « أوكا » فلا يكون لهم وجود اجتماعى على الإطلاق . ويحاول المسنون دائما ممارسة ضغوط مختلفة على الأطراف المعنية لكى يكسبوا الأطفال غير الشرعيين عضوية الأوكا التى ينتمى إليها آباؤهم أو أمهاتهم .

وتكتسب عضوية الأوكا بمجرد الميلاد . لذلك فإن العالم الخارجى يربط دائما بين الإنسان والأوكا التى ينتمى إليها . ولا يسقط ارتباط الفرد بالأوكا بوفاته ، لأنه يصبح بمجرد الوفاة جزءا من الأسلاف المؤلهين الذين يرعون الأوكا التى كانوا قبل وفاتهم أعضاء فيها . ويقدم أعضاء الأوكا لأسلافهم الطعام والماء فى المناسبات المختلفة .

وأولاد الأوكا هم – من الناحية الرسمية – أبناء لكل الذكور الذين يرتبطون فيما بينهم بقرابة عاصبة . ويقوم الأطفال برعى ماشية الأوكا ، وصيد الطيور ، وممارسة الألعاب المختلفة . وحينما يكبرون يتولون معا إدارة الممتلكات التى تركها الأسلاف تحت إشراف رئيس الأوكا .

أما اختيار القرين أو القرينة فيتوقف إلى حد كبير على العضوية فى الأوكا . فالعلاقات الزوجية محرمة بين أعضاء الأوكا الواحدة . وحينما تمتد القرابة العاصبة فى الأوكا يزداد نطاق تحريم الزواج من الأقارب حتى ولو كانوا من غير أعضاء الأوكا ولا يسمح لأبناء الأخوات أيضا بالتزاوج .

أما الملكية الثابتة الموروثة عن السلف فلا تقبل التقسيم والتجزئة . فهى تنتقل عادة من جيل الذكور الذين تربطهم قرابة عاصبة إلى الجيل التالى دون أن تخضع للتقسيم خلال عملية الانتقال هذه . ومع ذلك فمن الممكن أن تحدث القسمة إذا ما أعلن كل عضو راشد فى الأوكا رغبته فى ذلك . غير أن حدوث ذلك أمر نادر جدا ، كما أدلى بذلك بعض أفراد هذه القبائل .

وهناك عاملان أساسيان فى تقوية الأوكا وتدعيمها :

الأول : هو صعوبة عملية التقسيم ذاتها .

والثانى : تفضيل الزواج الليفراتى (زواج أرملة الأخ المتوفى) . وعلى أعضاء الأوكا أن يعيشوا حياة مشتركة من المهد إلى اللحد . وهم يرتبطون فيما بينهم بروابط قوية عديدة ، تبدو أوضح

مانكون فى تعاونهم من أجل إنجاز المهام المشتركة . ويصبح الأفراد – بعد وفاتهم – أسلافا يستمرون فى الاهتمام بالأوكا التى كانوا ينتمون إليها وهم على قيد الحياة . وبمقتضى ذلك يستحقون العطف من أخلافهم . من ذلك يتضح أن الأوكا هى كيان أكبر من مجرد جماعة تشتمل على أعضاء احياء فى فترة زمنية معينة . أنها مستمرة عبر الزمن ، كما أن الأعضاء الأحياء فى أى فترة زمنية هم مجرد نقاط عليها . ولقد ذكر أفراد قبائل الكورجس أو الأوكا شىء أبقى وأدوم من أعضائها . ومع ذلك فإن هؤلاء الأفراد على وعى شديد أيضا بأن الفرد لايحيا حياته الاجتماعية طالما كانت الأوكا باقية . ولذلك فإن لدى كافة أفرادها رغبة قوية فى استمرار الأوكا ودوامها ، وليس هناك شىء يفزعهم ويؤرقهم أكثر من انهيار الأوكا أو ضعفها . وحينما تتعرض الأوكا للانهيار ، يلجأ أفرادها إلى إجراءات تقليدية معينة حتى يتمكنوا من تدعيمها أو رد الحياة إليها .

ويشير شرنفاس فى ختام تحليله لنظام الأوكا أن هذا النمط من الأسرة الممتدة قد فقد أهميته تدريجيا خلال السنوات الأخيرة . ويعلق على هذا النظام بملاحظة ختامية يقول فيها :

«لاشك أن نظام الأوكا السائد بين قبائل الكورجس أقوى بكثير من نظام الأسرة المشتركة السائد لدى الطوائف ذات المكانة الأعلى التى تعيش فى جنوب الهند . ذلك لأن استناد الأوكا إلى مبدأ عدم تقسيم ملكيتها ثم تفضيل الزواج الليفراتى قد عاقا انقسام الأوكا وتفككها . يضاف إلى ذلك تفضيل زواج أولاد العمومة والخئولة الذى منح الأوكا قوة فوق قوة . ومن الواضح أن هذه العوامل تجعلنا نقرر أن نظام الأوكا أقوى بكثير من الأشكال الأخرى للأسرة المشتركة » .

ومن عوامل ضعف أسرة الأوكا – كما يقرر شرنفاس – ازدياد تضامن الأسرة النووية التى هى جزء من الأوكا أو لبنة صغيرة من لبناتها . وقد حدث هذا التضامن فى الأسرة النووية على حساب تضامن الأوكا ذاتها . وتظهر وحدة الأسرة النووية داخل الأوكا فى بعض المناسبات الطقوسية . كما أن الخلافات بين أفراد من أسر نووية مختلفة – داخل الأوكا – يجعل أفراد الاسرتين يتجنبون بعضهم البعض ، فتضعف بينهم العلاقات . إلا أن هناك بالطبع أسبابا أخرى متصلة ببناء المجتمع الهندى وتطوره الحديث هى التى أدت بشكل حاسم إلى تدهور أهمية الأوكا كتنظيم عائلى مسيطر[١٠] .

---

(١٠) انظر عرضًا مفصلا لتلك الظروف عند بوتومور ، المرجع السابق ص ص ٢٦٩ وما بعدها .

(جـ) الأسرة عند الأباتش (من الهنود الحمر)[١١] :

شعب الشيريكاهوا أباتش واحد من شعوب الهنود الحمر الأمريكيين ، وهو أساسا شعب يعتمد فى حياته على الصيد وجمع الثمار . غير أن الاقليم الذى يعيشون فيه سمح بقيام تجمعات سكانية كبيرة ، على الرغم من أنه منطقة قاحلة ، وليست غنية بمواردها الطبيعية . وهو يعيش فى ثلاث مجموعات رئيسية ، تتكون كل مجموعة منها من عدد من الجماعات المحلية أو المجتمعات المحلية . وتمثل الأسرة الوحدة الاجتماعية ذات الأهمية الفائقة عند هذا الشعب . وهى عبارة عن أسرة مشتركة تقوم على نظام السكنى عند الأم . لأنها تتكون من عدة أسر نووية تجمع بينها رابطة القرابة والسكنى المشتركة . وعندما تتكون – من خلال الزواج – أسرة نووية جديدة ، فإنها تنتمى إلى الأسرة المشتركة للزوجة وتقيم معها .

وتلعب الأسرة المشتركة دورا فائق الأهمية فى حياة الفرد الآباتشى ، ولا نبالغ إذا قلنا أن الفرد فى ذلك المجتمع يقضى الجانب الأكبر من حياته فى صحبة أقاربه . فالأسرة هى التى تشبع جميع احتياجات أفرادها من الطعام والملبس والمأوى وغير ذلك من الضروريات . فداخل الأسرة المشتركة تتوافر الأعمال والمهارات اللازمة لإشباع تلك الاحتياجات . ويتم توزيع العمل تبعا للسن والنوع ، وتوزع السلع التى يتم انتاجها على أفراد الجماعة ، كما يتم استهلاكها داخل الجماعة نفسها . وعلى الرغم من أن الأسرة المشتركة تعيش دائما ضمن جماعة محلية فى تعاون يقل أو يكثر مع غيرها من الأسر المشتركة . فهى لاتخضع لسلطة غير سلطتها هى . ويدير أمورها أكبر أعضائها سنا ، وأوفرهم حظا من الخبرة ، أى أنه يمكننا أن نقول باختصار : أن الضبط الاجتماعى داخل الأسرة المشتركة ، وكذلك انتظام العلاقات بين مختلف الأسر المشتركة ، يتحقق أساسا وإلى حد بعيد من خلال القرابة ومن خلال العادات التى تنظم سلوك الأقارب فى عمليات التفاعل الاجتماعى التى تتم بينهم .

وواجب الآباء والأعمام والأخوال والعمات والأجداد أن يسهروا على رعاية وتعليم وتربية قريبهم من الأجيال الأصغر . ويتوقع من هذا الصغير أن يطيع الكبار ويحترمهم . أما الاخوة وأبناء العمومة والخئولة من نفس النوع فينشأون معا وغالبا مايكون ذلك فى نطاق أسرة مشتركة واحدة

---

(١١) اعتمدت فى عرض المادة الاثنوجرافية عن الأسرة عند شعب الشيريكاهوا أباتش على بيلز وهوبجر ، مقدمة فى الانثروبولوجيا العامة ، مرجع سابق ، الجزء الأول ، ص ص ٤٧٦ – ٤٨١ . وعلى من يريد الاستزادة من التفاصيل عن حياة هذا النوع من الأسرة أن يعود إلى المرجع المذكور والى المراجع الواردة هناك .

وتتكون بينهم منذ فترة مبكرة من حياتهم علاقة ود حرة غير مقيدة ، بحيث تستمر تلك العلاقة بينهم طوال حياتهم إذا ما قدر لهم أن يواصلوا الحياة فى نفس المكان معا . كذلك الأخوات وبنات أعمامهن يعشن عادة فى نفس الأسرة الممتدة . ويظلون بعد البلوغ على تعاونهم فى أداء الأعمال المنزلية الروتينية التى لانهاية لها . ولا توجد فى ثقافة الأباتش جميعا علاقة تضاهى هذه العلاقة فيما تتميز به من ود مخلص . فالفرد من الأباتش يجد فى اخوته وأبناء عمومته من نفس نوعه أفضل أصدقائه على الإطلاق وأخلص رفاقه على الدوام .

وعلى خلاف هذا الود والدفء الذى يميز علاقة الاخوة وأبناء العمومة والخئولة من نفس النوع ، نجد علاقة الاخوة وأبناء العم الذكور مع اخوتهم وأبناء عمومتهم الإناث (وكذلك الإناث مع الذكور) تتميز بصفة رسمية صارمة ، وبالكثير من القيود . فمنذ مرحلة مبكرة من حياة الطفل عندما يبدأ فى تعليم الواجبات المطلوبة من أبناء نوعه ، يتعلم فى نفس الوقت كيف يتجنب اخوته وأبناء عمومته من النوع الآخر ، وكيف يجب عليه أن يعامل هؤلاء بحرص وتحفظ إذا ما كان من الضرورى التعامل معهم فى بعض الأحيان .

أما بالنسبة للرجل وأصهاره ، الذين يعيشون معه داخل نفس الأسرة الممتدة ، فتقوم بينه وبينهم علاقة أكثر رسمية من تلك التى أشرنا إليها . وتتضح تلك الصيغة الرسمية بطريقتين : الطريق الأول : هو مايعرف باسم الشكل المهذب . والطريق الثانى : هو التحاشى الكامل[١٢] ومن الواضح أن وظيفة هذه الأساليب من وسائل الضبط الاجتماعى تقوم على تأكيد تماسك الأسرة المشتركة ، وتنظم عمليات التفاعل الاجتماعى بين الأقارب . بحيث يتحقق التعاون والانسجام داخل الأسرة المشتركة الواحدة من ناحية ، وبين الأسر المشتركة وبعضها من ناحية أخرى .

(د) الأسرة الممتدة عند التانالا (مدغشقر) :

يمثل نظام الأسرة الممتدة عند شعب التانالا (فى مدغشقر) نموذجا مغايرا لذلك الذى عرفناه عند شعب الشيريكاهوا أباتش فى الفقرة السابقة . فهو نظام أبوى يقوم على نظام السكنى عند الأب ، كما أنه يختلف كذلك عن النظام السابق فى تنظيمه وفى الوظائف التى تؤديها .

تعيش قبائل التانالا فى منطقة جبلية تغطيها الأحراش الكثيفة والغابات ، وهى تعانى مع ذلك

---

(١٢) اقتصرنا هنا على عرض الخطوط العامة لصورة الوضع عند هذا الشعب ، ويجد القارئ توضيحا مفصلا لهذه العلاقات ومظاهرها عند بلز وهوبجر . المرجع السابق ، ص ص ٤٧٨ – ٤٨٨ . كما استعرض المؤلفان تفصيلا الحقائق الدالة على وظيفة هذه الأساليب من أساليب الضبط الاجتماعى ، نفس المرجع ، ص ص ٤٧٩ – ٤٨١ .

من ندرة الطعام البرى ، أى أن أفرادها يجب أن يعتمدوا على أنفسهم فى الحصول على طعامهم سواء عن طريق الزراعة أو الرعى ، وكلاهما يتم بطريق وجهود غاية فى الصعوبة والإرهاق . وتساعد ظروف الموقع الجغرافى الذى يعيش فيه شعب التانالا على جعل القرى المختلفة تنعزل بعضها عن بعض ، وتتمتع بقدر من الاستقلال السياسى .

ويستطيع تأسيس الأسرة المشتركة أى رجل لديه عدد كاف من الأبناء والأحفاد الذكور يمكن أن يكون قوتها العاملة ، ويكون قد حصل من الثروة فى الماشية قدرا يتيح له أن يشترى أو يبنى لنفسه بيتا فى القرية . ويمكن أن تضم مثل هذه الأسرة بالإضافة إلى مؤسس الأسرة وزوجته أولاده الذكور وزوجاتهم وأحفاده ، فهى بذلك أسرة متعددة الأجيال فى خط الأب . أما البنات والحفيدات فيذهبن عند الزواج ليلتحقن بالأسر المشتركة لأزواجهن .

وما دام مؤسس الأسرة وزعيمها على قيد الحياة ، فإنه يبقى يسيطر سيطرة مطلقة على الأسرة الممتدة ، فهو ينظم أوجه النشاط فيها ويوجهها (خاصة فيما يتعلق بالزراعة الأساسية) ويسوى المنازعات التى تثور بين أعضائها ، ويتمتع بطاعة واحترام جميع أفرادها . ولكن الأهم من ذلك كله أن يحتفظ لنفسه بجميع الأرباح التى تعود على الأسرة من الزراعة . على الرغم من أنه ملزم بإعالة الأسرة وبدفع مهور زوجات أبنائه ويقدم من حين لآخر هدايا لأولاده وأحفاده .

والسمة الفريدة التى تتمتع بها الأسرة الممتدة عند التانالا أنها تجمع بين شكلين من أشكال الأسرة الممتدة . الأول هو الأسرة الممتدة المتعددة الأجيال والثانى هو الأسرة الممتدة الكبيرة التى تقوم على سيطرة الأخ الأكبر . حيث نجد أنه عندما يموت مؤسس الأسرة ، فإن أكبر أبنائه يرث وضعه ، كما يرث الجانب الأكبر من زوجته . غير أن التصرف فى دخل الأسرة لايصبح بعد وقفا على رب الأسرة الجديد وحده ، وإنما يتعين عليه أن يشترك اخوته معه فيما يحصل عليه من دخل ، ولما كان الحفاظ على الأسرة الممتدة أوفر عائدا من الناحية الاقتصادية عادة ، ولما كان الاخوة قد اعتادوا كذلك العمل معا فإن موت مؤسس الأسرة لايؤدى فى العادة إلى تفكك الأسرة الكبيرة ، ولذلك تظل كما كانت من قبل ، لم يتغير فيها إلا أن أصبح أكبر الأبناء ربا لها ، وعلى أمل أن يستطيع كل من الاخوة الذكور أن يجمع لنفسه من الثروة مايكفى لتأسيس أسرة جديدة . إذا سمحت له الظروف بذلك .

ولكن عند وفاة الأخ الأكبر وانتقال وظيفة رب الأسرة إلى أكبر أبنائه ، فإن من الأمور القريبة الاحتمال جدا أن تتفكك الأسرة الممتدة . إذ من المرجح أن يكون بقية الاخوة قد استطاعوا حتى ذلك الوقت أن يجمعوا من الثروة ويعقبوا من الأولاد والأحفاد مايكفى لتأسيس

أسر جديدة مستقلة . وهناك – فضلا عن ذلك – حافز قوى من طبيعة غير اقتصادية للانفصال عن الأسرة السابقة وتكوين أسرة جديدة . ذلك أن مؤسس الأسرة الممتدة لايحظى بهيبة خلال حياته فقط ، وإنما يكرم بعد موته أيضا (حيث يمارس شعب التانالا شكلا من أشكال عبادة الأسلاف) من قبل كل أعقابه الذكور . أما الرجل الذى لايؤسس أسرة ممتدة فلا يلقى إلا تكريم أبنائه وأحفاده الذكور فقط[١٣] .

(هـ) الأسرة النوبية (نموذج من قرية غرب أسوان) :

تمثل الأسرة النوبية المعاصرة صورة للأسرة الأبوية التى تنطوى على رواسب واضحة وقوية ترجع إلى مرحلة سابقة كان فيها النظام القرابى قائما على الانتساب فى خط الأم . ولعل هذا النظام الأمومى كان مسيطرا على المجتمع فى المرحلة السابقة على دخول الإسلام ذلك المجتمع . فبدخول الإسلام أخذ المجتمع بالنظام الأبوى . ولكنه لم يتخل تماما عن بعض عناصر النظام الأمومى .

وتتجلى تلك العناصر الأمومية فى دراستنا لعادات وتقاليد الزواج فى ذلك المجتمع ، ولنظم البيت النوبى التقليدى الذى مازال سائدا حتى اليوم . فعندما تتزوج الفتاة تنتقل للإقامة مع زوجها فى بيت الأم . وتقيم الأسرة الجديدة هناك إلى حين تنجب الطفل الأول ، وأحيانا تطول المدة إلى سنوات أطول إلى أن تنجب عدة أطفال وليس طفلا واحد فقط .

بعد تلك المرحلة تنتقل الأسرة النووية الجديدة إلى بيت جديد تنشئه لنفسها ، أو تقيم لدى أسرة والدى الزوج . وفى حالات قليلة أخرى تستمر إقامة الأسرة الجديدة مع أسرة أم الزوجة إلى مالا نهاية[١٤] .

(و) الأسرة الكبيرة تحت سيطرة الأخ الأكبر[١٥] :

يظهر هذا الشكل من أشكال الأسرة الممتدة فى أعقاب وفاة الأب الكبير (رب تلك

---

(١٣) انظر بيلز وهوبنر ، المرجع السابق ، ص ص ٤٨١ – ٤٨٣ لمزيد من التفاصيل عن حياة الأسرة المشتركة عند التانالا مما لايدخل فى مجال دراستنا هنا .

(١٤) انظر تفاصيل هذا الموضوع عند محمد الجوهرى ، بعض مظاهر التغير فى مجتمع غرب أسوان . دراسة انثروبولوجية لأحد المجتمعات النوبية ، مطبعة جامعة القاهرة ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ص ٨٩ ومابعدها ، ومواضع أخرى متفرقة .

(١٥) اعتمدنا فى عرض الخطوط العريضة لهذه الفقرة على المصادر التالية :

– George P. Murdock, Social Structure, New York, 1949. Chapter 2.

— Dragomir Stojcevic, «Adgnatus proximas», dans: **Droits de l'Antiquité et Sociologie juridique** (Melanes de Henri Levy Bruhl). Paris, 1959.

الأسرة) ، حيث لايتفرق الاخوة (بالمعنى الواسع لكلمة اخوة كما أشرنا فى موضع سابق) وزوجاتهم وأولادهم ، وإنما يستمرون فى العمل والحياة معا . ولا يكاد يتغير أى شىء فى حياتهم سوى شخص رئيس الأسرة الكبيرة ، أما فيما عدا هذا فالبيوت التى يعيشون فيها هى هى ، وكذلك الأرض التى يفلحونها ، والمصالح التى يرعونها ، ونظام تسلسل السلطة من المستويات الأعلى إلى المستويات الأدنى . يظل كل شىء تقريبا على حاله .

وأهم سمات هذا الشكل أنه واسع الانتشار فى العالم القديم وفى عالمنا المعاصر على حد سواء . ويبدو أنه قد ظهر واستقر وترسخت جذوره فى الحياة الاجتماعية منذ استقرار الإنسان فى بقعة معينة . بعد أن تجاوز حياة التجوال والتنقل . ولذلك نجده من أوسع الأشكال الأسرية انتشارا بين الفلاحين ، سواء فى أوربا فى عصورها القديمة والوسيطة ، أو بين فلاحى العالم الثالث فى الماضى والحاضر وعلى اختلاف مستويات تطورهم .

غير أن هذا النظام قد لعب علاوة على ذلك الدور الزراعى الواضح (حيث يحافظ لفترة طويلة على تماسك التركة وعدم تمزقها وتبعثرها) ، لعب أدوارا أخرى فى عالم النقل والتجارة . فقد تحولت بعض هذه الأسر – التى تقوم على سيطرة الأخ الأكبر – إلى مشروعات للنقل التجارى بين المناطق الريفية فى أوربا فى العصور الوسطى ومطلع العصور الحديثة . كما لعبت بعض تلك الأسر دورا بارزا فى فجر الرأسمالية الغربية ، حيث أنه من الواضح أن الفرد كان أضعف من أن يغامر بكل شىء فى تلك المرحلة من النمو الاقتصادى الشديد التقلب المحفوف بالمخاطر . فكان اقتحامه هو واخوته (وأسرته الكبيرة) ميدانا جديدا كان يضمن له سلفا حدا أدنى من النجاح ، أو تكون الأسرة له بمثابة الظهير على الأقل لو خابت مغامرته ... وهكذا[١٦] . والأمر اللافت للنظر أن بعض قوانين البلاد الأوربية كانت تحظر فى ذلك الوقت قيام مثل هذه التكتلات العائلية الاقتصادية ، كما أن المناخ السياسى العام – حتى لو لم يكن هناك تشريع صريح ضدها – كان ينفر من مثل هذا الشكل من أشكال تركيز القوة . ومع ذلك فإن أى مشتغل بالمال أو الصناعة لايعدم الوسائل التحتية التى تكفل له تحقيق غرضه ، خاصة فى مثل تلك المرحلة المبكرة من تط-

---

— Andrée Michel, «Fonctions et Structures de la famille», dans: **Cahires Internationaux de Sociologie, NS 7, 1960, PP. 113-135.**

— **R. Konig, Die Familie der Gegenwarr,** op. cit. PP. 40-41.

(١٦) يشير رينيه كونيج ، المرجع السابق ، الى بعض البنوك الكبرى مثل بنوك آل ميدتش . وآل فوجر وغيرهم كأمثلة على هذا النشاط الأسرى فى قطاع الاقتصاد . كما يشير أيضا الى بعض المشروعات الصناعية الضخمة التى قامت على اكتاف أسر من هذا النوع .

نظام الحكومة والنظام القضائى بصفة خاصة . وهكذا قامت واتسعت هذه المشروعات الاقتصادية العائلية تحت سمع الدول وبصرها .

ولكن لاشك أن التطورات العالمية والمحلية المعاصرة فى الدول الصناعية قد أدت إلى إخفاء هذا النمط من أنماط الأسرة الممتدة . فذهب وذهبت معه كل ملامحه ، لأنه لم يعد يضطلع بما كان له من وظائف . إذ دخلت محل الأسرة الكبيرة القديمة الدولة والمؤسسات العامة تعطى الفرد الانتماء والأمان والحماية . كما سنفصل فيما بعد . ولكن هذا النظام ظل ، كما هو متوقع متبقيا - مزدهرا إلى حد كبير فى البلاد النامية التى كان معروفا فيها فى الماضى[١٧] . وإن كانت بعض الكتابات قد أشارت إلى بعض رواسب بعيدة له فى بعض أنحاء أوربا . من هذا مثلا فى منطقة البيرينية فى منطقة الألب السويسرية ، وفى منطقة الألب الوسطى عامة وحتى الشرق وصولا إلى البلقان[١٨] .

تعليق وتحليل :

عرضنا فيما سبق لبعض الأمثلة التى تمثل أبرز أشكال الأسرة الممتدة فى انتشارها عبر الزمان وعبر المكان . ويتضح من تلك الأمثلة أن الأسرة الممتدة التى نعنيها هى عبارة عن تجمع من بعض الأسر النووية المستقلة استقلالا داخليا داخل إطار الأسرة الكبيرة . وقد تجمع تلك الأسر النووية ، رابطة أجيال متتابعة فى خط الأب أو فى خط الأم . كما قد تجمع تلك الأسر النووية معا رابطة الخضوع لأسرة الأخ الأكبر . ومن البديهى أن هذه الأشكال قد تظهر لنا فى الواقع الاجتماعى الحى فى صورة نقية خالصة ، أى بشكل نمطى ، كما أنها قد تظهر فى صور مختلفة أو معدلة ، ولكننا نستطيع مع ذلك وفى كل حالة أن نميز تميزا واضحا الطبيعة الحقيقية لنمط الأسرة .

---

(١٧) تدم ويليام جود Goode فى كتابه الثورة العالمية وأنماط الأسرة ، الشواهد على تلك الحقيقة ، حيث استعرض بعض نماذجها المعاصرة الموجودة فى بعض بلاد العالم الثالث حاليا .

(١٨) أشار أكثر المؤلفين الى نظام الزادروجا Zadruga وهو احد أشكال الأسرة الممتدة الذى كان معروفا فى يوغوسلافيا ، وظل ذائعا حتى مطلع القرن العشرين . انظر كذلك بوتورمور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، مرجع سابق . وتعد المراجع التالية من أهم المصادر التى عالجت نظام الأسرة فى منطقة البلقان ، انظر :

-- Paul Vinogradoff, **Outlines of Historical Jurisprudence,** 2 Vols, Oxford 1920-1922).

-- Zdenko Vinski, **Die sudslavische Grossfamilie in ihrer Beziehung zum asiatischen** Grossraum, Zagreb, 1938.

— Emile Sicard, **La Zadruga sud-slave dans l'évolution du groupe domestique,** Paris, 1943.

- ويعد الكتاب أهم الدراسات التى نشرت فى العالم عن نظام الزادروجا ، وما زال متفوقا حتى على ماكتب بعده عن نفس الموضوع .

وقد عرضنا لنموذج الأوكا كمثال شهير للأسرة الممتدة يتميز بتعدد الأجيال فى خط الأب . ووجه التميز فى هذا النمط الأسرى أن هناك عديدا من عوامل التماسك والترابط التى تعمل على تدعيم هذا الشكل الأسرى . وأول تلك العوامل وأبرزها عامل الدين ، ثم الاعتقاد بأن الأسرة كوحدة اجتماعية لاتجمع بين الأحياء من أفرادها فحسب ، ولكنها تفهم كوحدة تجمع بين الأحياء والأموات منهم على حد سواء لذلك يمكن أن نقول دون مغالاة أن وفاة أحد أفراد الأسرة ليس إضعافا لها أو إخلالا بقوتها ، وإنما هو على العكس من ذلك عامل قوة وتدعيم لهذا الكيان الجمعى الكبير. يضاف إلى هذه الأبعاد الروحية الاعتقادية بعد مادى فائق الأهمية هو نظام الملكية . فالأرض الزراعية والمنقولات لايمكن أن تتوزع . بل تبقى كوحدة واحدة غير قابلة للتقسيم ، ومن ثم يصبح الانتماء إلى الأسرة الكبيرة ضمان لحياة الفرد المادية . فبدون انتمائه لأسرة الأوكا لاتكون له أرض يفلحها ، ويفقد كل أساس لحياة اقتصادية خاصة . وفى ضوء هذا الإطار العام نفهم وظيفة نظام الزواج الليفراتى (زواج الأخ من أرملة أخيه) ، كضمان لعدم خروج ثروة واحد من أفراد الأسرة إلى شخص آخر قد يكون غريبا .

وتمثل الأسرة الممتدة عند شعب الأباتش الهندى الأحمر النموذج المقابل لأسرة الأوكا فى نقائه ، فهى أسرة ممتدة متعددة الأجيال ولكن فى خط الأم ، وليس فى خط الأب كأسرة الأوكا ، وتمثل هى الأخرى مايمكن أن نسميه نمطا خالصا أو نقيا لهذا الشكل الأسرى . وقد أشرنا فى ثنايا الحديث – ولكن بشكل سريع وعابر – إلى الأهمية الوظيفية للنظم القرابية والأوضاع الثقافية الموجودة فى تدعيم بناء الأسرة .

أما النموذج الثالث وهو الأسرة الممتدة عند شعب التانالا فى مدغشقر فتمثل شكلا متميزا من حيث هى فى الأصل أسرة أبوية متعددة الأجيال فى خط الأب ، ولكنها يمكن أن تمر فى مرحلة معينة من تطورها بطور انتقالى تكون فيه الأسرة خاضعة لسيطرة الأخ الأكبر . (وذلك بعد وفاة رب الأسرة الأب) . ويبدو الطابع الانتقالى لهذه المرحلة فى حياة أسرة التانالا فى الحقيقة التى أبرزناها وهى العودة فى أقرب فرصة إلى الشكل الأبوى من جديد . ويتم ذلك إذا تمكن أحد الاخوة (أبناء رب الأسرة السابق) من تكوين الثروة اللازمة لتأسيس أسرة أبوية ممتدة جديدة . والأرجح أن يحدث ذلك بعد وفاة الأخ الأكبر ، أما فى حياته فمصلحة الجميع الاقتصادية تحتم عليهم أن يظلوا فى وحدة معيشية وقرابية واحدة ومتماسكة .

أما الأسرة النوبية المعاصرة – كما عرفناها عند أبناء قرية غرب أسوان – فهى الأخرى شكل متميز . حيث أنها أسرة ممتدة متعددة الأجيال فى خط الأم . ولكنها لاتستمر فى هذا الشكل إلى

مالا نهاية ، بل العكس أن هذه المرحلة يمكن أن تكون عابرة ومؤقتة فى حياة الأسرة . ذلك أنها لاتستمر إلى أبعد من إنجاب الطفل الأول فى العادة . وإن كان من الممكن أن تطول عن ذلك ، لو أن الزوج مثلا هاجر إلى شمال الوادى . فإن زوجته واطفاله يظلون فى حياة مشتركة مع أسرة الأم (أم الزوجة) .

ولكن القاعدة العامة أن تلك المرحلة الانتقالية لاتلبث بعدها أن تتفكك الأسرة الكبيرة وتنقسم إلى أسر نووية من جديد ، حيث تذهب البنت (الزوجة) إلى سكن جديد مستقل . ولكن الميزة الفريدة لهذا المجتمع أن الأسرة الجديدة لاتذهب إلى أى مكان ، ولا تتحرك على غير هدى ، ولكنها تتحرك حتما فى إطار النجع . ومن ذلك يتضح بجلاء أن الأسرة الكبيرة لاتنحلل بشكل مطلق ، أى تتحول إلى أسر نووية لا رابط بينها ، ولكنها تتنازل عن سيطرتها للبدنة . فالبدنة وليست الأسرة الكبيرة هى وحدة التنظيم الاجتماعى ، وهى أساس المعاملات الاجتماعية بأنواعها . فالأسرة عند النوبيين المحدثين (بالذات فى حالة النموذج المدروس) نووية فى كيانها الحقيقى والقانونى ، تمر بشكل انتقالى بمرحلة الأسرة الأمومية الكبيرة ، وتعود بعدها محافظة على استقلالها ولكن فى إطار البدنة (النجع) . وهذا تأكيدا واضح كل الوضوح بطبيعتها الخاصة المتميزة . ولعل هذه الإشارات العابرة تبرز لنا أهمية إجراء دراسات انثروبولوجية أخرى بمثل هذا التعمق لمزيد من المجتمعات النوبية . بل ولكل المجتمعات المتميزة فى إطار ثقافتنا المصرية المعاصرة . إذ لاشك أن مثل هذه الدراسات يمكن أن تثرى التراث الانثروبولوجى العالمى ، وتقدم نماذج فريدة يمكنها أن تلقى أضواء مفيدة على مانعرفه من أنماط سواء كانت خالصة أو مختلطة .

أما بالنسبة لآخر الأشكال التى عرضنا لها وهى الأسرة الممتدة والتى تخضع لسيطرة الأخ الأكبر ، فإن أبرز الحقائق المميزة لها أنها فى طابعها العام انتقالية أو لاحقة على شكل سابق ، هو الشكل الأبوى المتعدد الأجيال . حيث تعقب وفاة الأب فى هذه الحالة سيطرة الأخ الأكبر (أى الابن الأكبر لرب الأسرة المتوفى) . ولكن المهم أن نلاحظ أن هذا النموذج يمكن أن يصبح نمطا مستقلا بذاته ، أى يستمر توارث السيطرة على الأسرة لأكبر الإخوة بعد ذلك باضطراد ، فلا يرث السيطرة على الأسرة ابن ذلك الأخ الأكبر ، وإنما يليه فى حكم الأسرة الأخ التالى عليه فى السن ، فى هذه الحالة نكون بصدد تحول الأسرة الممتدة الأبوية إلى أسرة ممتدة خاضعة لسيطرة الأخ الأكبر ، وتستمر هكذا كشكل متميز .

على أن الأمور يمكن أن تسير سيرة أخرى حيث يكثر ظهور هذا الشكل الأسرى كمرحلة انتقالية قصيرة المدى فى حياة الأسرة الممتدة الأبوية . حيث يقفز إلى موقع السيطرة بعد وفاة الأب

أكبر أبنائه ، ويخضع له باقى إخوته . ولكن لاتستمر تلك السيطرة إلا إلى حين تمكن بقية الاخوة من تكوين أسر ممتدة أبوية جديدة تضمهم مع أسر أولادهم النووية .

من كل النماذج السابقة يتضح لنا بجلاء أن وجه الاختلاف الأساسى بين هذين النمطين الرئيسين من أنماط الأسرة الممتدة يكمن فى بناء السلطة داخل كل نمط منهما . ففى الأسرة الممتدة التى تخضع للأخ تكون السلطة بيد الأخ الأكبر ، الذى يكون فى هذه الحالة عبارة عن سيد وسط الاخوة ، وقد يتقاعد أو يتخلى عن تلك السلطة فى عمر معين . لأنه ليس من المألوف أن يستمر قابضا على السلطة حتى نهاية حياته . إذ أنه طالما أن إدارة شئون تلك الأسرة الكبيرة بتشعباتها العديدة التى أشرنا إليها تتطلب قوة ويقظة وقدرا من المرونة ، وهو فى الأساس لم يكسب تلك السلطة عن طريق الميراث ولكن لأنه يتميز بكفاءة عالية أو قوة شخصية خاصة . فالمنطق أن تلازمه السلطة طالما لازمته كفاءته وقوته الروحية والمادية . ولذلك كان الأرجح أن يتقاعد الأخ الأكبر عن سلطته تلك فى نحو الستين من العمر . أما الأب الذى يسيطر على الأسرة الممتدة المتعددة الأجيال فيظل فى العادة بسلطاته طوال حياته ، لايعرف التقاعد .

ولا شك أن هذا الاختلاف فى بناء السلطة بين نمطى الأسرة يعكس كذلك اختلافا ظاهرا فى ظروف المعيشة المكانية . إذ نجد الأسرة الأبوية المتعددة الأجيال تسكن فى العادة مكانا حصينا أو قلعة من القلاع (على نحو مايذكر كونيج بالنسبة للأسرة الممتدة الارستقراطية الأوربية) . وفى هذه الحالة يضم هذا القصر أو تلك القلعة الضخمة عددا كبيرا من أفراد الأسرة والخدم والعبيد . كما يعيش فى حماية هذا القصر (ربما داخل أسواره ، أو خارجها ولكن بالقرب منه) أعداد أخرى من الأيدى العاملة التى تؤدى خدمات معيشية حيوية للأسرة كالعمال بأنواعهم ، والحرفيين ، والتجار وغيرهم . أما الأسرة الكبيرة التى تخضع للأخ الأكبر فتسكن فى العادة رقعة مكانية أكثر اتساعا ، ولنقل مثلا قرية صغيرة أو نجعا أو كفرا أو شيئا من هذا القبيل . فهى أكثر انتشارا فى المكان من النمط السابق ، ومن المألوف (بالنسبة للتجارب الأوربية المعروفة) أن يتسمى المكان باسم الأسرة كما يقال كفر فلان ، نزلة فلان ، منية فلان .. إلخ . أما الوحدات العائلية الممتدة من هذا النوع والتى تسكن فى وحدة سكنية واحدة (قصرا ضخما أو دوارا كبيرا مثلا) والتى تشير إلى وجودها بعض المراجع الفرنسية والألمانية والسويدية فى الاجتماع العائلى . فتلك لاتمثل نمطا خالصا من هذا النوع من الأسر ، ولكن الأحرى إنها عبارة عن أسر ممتدة أخوية . ذابلة أو هى بقايا لأسر من هذا النوع . ذلك أن طبيعة البناء السياسى لهذا النوع (ولنقل مثلا الأكثر ديموقراطية) لايقوم

على التركيز الذى تشير إليه بعض الأمثلة فى المراجع المذكورة ، وإنما يقوم على الانتشار المكانى المسطح .

كما أن هناك بعض النماذج الهندوسية المعروفة فى بعض المناطق فى الهند التى لاتتطلب من الأسر النووية المنضوية تحتها أن تعيش داخلها باستمرار . وإنما يمكن أن يحدث أن يعيش الأولاد داخل بيت أبيهم طالما أنهم متزوجون. ولكن ما أن يتزوجوا (وفى أحيان أخرى بعد إنجاب الطفل الأول) ينفصلون فى السكنى عن الأب . ولكنهم يعيشون بالقرب منه فى نطاق وحدة مكانية من نوع آخر ، تماما أو شديد الشبه بما عرفناه عن الأسرة النوبية ، ولكن مع اختلاف خط القربة . إذ تكون مجموعة الأسر النووية المتعددة الأجيال جماعة قرابية كبيرة (بدنة مثلا).

ويختلف الشكل الهندى المشار إليه عن الأسرة النوبية فى أنه عقب وفاة الأب (رأس الأسرة الكبيرة) يعود أولئك الاخوة بأسرهم النووية إلى الحياة معا فى بيت واحد ، أو فى وحدة مكانية متلاصقة . والسبب فى ذلك واضح وبسيط : أنهم فى خلال حياة أبيهم لم يكن لهم وجود اقتصادى مستقل ، فكل منهم – ومن أولادهم – يعمل فى أرض الأسرة ، ويتراكم الدخل فى يد رب الأسرة ، الذى ينفق على كل فرد من أفرادها حسب احتياجاته (المرض – الزواج – الكوارث ... إلخ) . ويحتفظ هو لنفسه بكل المدخرات كرأسمال مشترك ذى ملكية عامة ، ولكن لايملك أحد التصرف فيه إلا هو فقط .. معنى ذلك أن الانفصال المكانى لم يحطم أبدا الوحدة الاقتصادية للأسرة . وتبدأ تلك المشكلة ، مشكلة تقسيم الثروة . تثور بشكل واضح بعد وفاة الأب . ومن هنا التئام شمل الاخوة معا من جديد للعمل من جديد كوحدة واحدة ، أو حتى يتم توزيع الثروة ، إذا كانت ثقافة المجتمع تسمح بذلك . فإذا لم تسمح فإنهم يعيشون تحت سيطرة الأخ الأكبر ، إلى أن تتاح لهم أو لبعضهم فيما بعد فرصة تكوين أسر أبوية ممتدة جديدة[١٩] . من هذا يتضح أن الأسرة ، وإن كانت تنتمى فى الأصل إلى نمط أبوى متعدد الأجيال ، إلا أنها تمر أثناء ذلك بمراحل وأطوار تتخذ فيها أشكالا انتقالية وقد يتغير فيها بناء السلطة ، والمهم فى جميع الأحوال أن تكون لدينا القدرة والبصيرة على التمييز بين الشكل الأصلى والشكل الانتقالى أو

---

(١٩) هناك طائفة من المراجع الهامة التى تناولت هذه الظواهر بكثير من تفاصيلها . انظر منها :

— W J. Goode, **World Revolution and Family Patterns,** London 1963, P. 244.

— M.S. Gore, «The Traditional Indian Family» in: M.F. Vmikoff, **Comparative Family Systems,** Boston, 1965, PP. 2009 231 and P.212.

— Henry Orenstein »The Recent History of the Extended Family in India», in: **Social Problems,** 8, 1961, PP. 341-350.

—K. M. Kapadia, **Marriage and Family in India,** 2nd edition, Bombay, 1959.

—T. N. Madan, «The Joint Family», in: Mogey (ed.), **Family and Marriage, PP. 7 - 16.**

العارض . ولا شك أن التحليلات المتعجلة والميل إلى بناء تصنيفات وأنساق نظرية خلابة يمكن أن يعوق الرؤيا الموضوعية الهادئة .

كما أن الباحث المتعمق يجب أن يدرك الفرق الهام بين الصورة الثقافية المثالية والواقع الثقافى الحى . أن المجتمع يزخر بآلاف بل ملايين الظواهر ، بعضها يعبر تعبيرا أمينا عن الصورة الثقافية المثالية ، وبعضها الآخر تجاوز أى تنويع لتلك الصورة ، أو حتى قد يكون مخالفة صريحة لتلك الصورة المثالية . ويبدو هذا الاختلاف والغموض فى تحليل الأنماط المشار إليها من الأسرة الممتدة (٢٠) .

وتتفق أغلب المراجع فى دراسة الأسرة على أن الأسرة الكبيرة التى تخضع لسيطرة الأخ قد وجدت فى أنقى صورها وأوضحها فى الصين القديمة . ومن عوامل إبراز هذا والتأكيد عليه ذلك التنوع اللغوى المذهل فى مصطلحات القرابة التى تحدد فئات دقيقة كل الدقة لكل قريب ، وفى مراحل قرابته المختلفة ، إذا مرت هذه العلاقة ببعض الأطوار أو الأشكال التطورية ، فالأخ والأخ الأكبر والأخ الأكبر المسيطر وهكذا ، لكل واحد منها المصطلح الخاص الذى يعبر عنها . وقد أفاضت بعض المؤلفات الصينية وتلك التى وضعها بعض علماء الاجتماع الغربيين فى ابراز هذه النقطة والتأكيد عليها بتقديم النماذج والأمثلة (٢١) .

غير أن الملاحظة المنهجية الهامة على هذه الدراسات والملاحظات أن أغلب هؤلاء الدارسين قد أكدوا على الجانب الثقافى متجاهلين فى كثير من الأحيان التنوعات الواقعية الموجودة والتى قد تختلف عن هذه الصور المثالية . بل إننا نستطيع القول أن دراسة هذا الشكل من أشكال الأسرة الكبيرة قد تغلب عليها أحيانا الاتجاهات الأيديولوجية ، بمعنى أنها استغلت لتأييد وجهات نظر ومواقف سياسية معينة ، مما يخرج بالموضوع عن طابعه العلمى الموضوعى . فاعتبر بعض العلماء هذا النظام العامل الأول فى تدعيم وترسيخ الأوضاع الثقافية التقليدية فى المجتمع الصينى ، وأكبر

---

(٢٠) نبه الى هذه النقطة فى أكثر من موضع ويليام جود فى كتابه الثورة العالمية وأنماط الأسرة الذى سبقت الاشارة اليه ، انظر مثلا صفحة ٢٠٤ . وكذلك رينيه كونيج ، المرجع السابق ، الفصل الثانى ، خاصة صفحتى ٤١ – ٤٢ .

(٢١) انظر حول هذا الموضوع مؤلفات هان ى فنج Han- Yi Feng عن نسق القرابة الصينى وكتاب فرانسيس هسو F. HSU المعنون فى ظلال الأسلاف وقد سبقت الاشارة إلى هذين المرجعين فى حاشية سابقة . ثم ارجع علاوة على هذا الى المؤلفات التالية :

Marion J. Levy, Jr., **Modern China;** Olga Lang **Chinese Family and Society, New Haven, 1946, Wolfram Eberhard, Research on the chinese Family, in: Sociologus,** 9 1959, PP. 1-11.

أما بالنسبة لمصطلحات القرابة الصينية التى تتصف بدرجة عالية من الدقة والتحديد فقد عالجها ليفى ستروس فى :

C. Levi—Strauss, **Les structures élementaires de la parenté** Paris, 1949, PP. 381-485.

قوة مناوئة للتغير فى ثقافة ذلك المجتمع على امتداد فترة زمنية طويلة . ومن هذا المنطلق اتجه العلماء المحافظون إلى تمجيد هذا الشكل من أشكال الأسرة ، باعتباره الأداة الأمينة المحافظة على التراث الاجتماعى التقليدى . ومن هذا المنطلق نفسه اتجه العلماء التقدميون إلى الهجوم على النظام نفسه ، لأنه ظل طوال تلك الفترة أكبر قوة معوقة للتقدم . المهم أن كلا الموقفين قد تجاهل مايمكن أن يتصف به هذا النظام « المثالى » من مرونة وما يمر به من أشكال انتقالية أو مرحلية . وكان البعد الايديولوجى هو المسئول بلا شك عن عدم الوضوح فى رؤية الواقع الثقافى القائم .

والحق أن الأسرة الكبيرة فى صورتها الصينية كانت قادرة دائما على أن تتحول إلى قوة اقتصادية مؤثرة ، ولا شك أن هذا التفوق الاقتصادى للأسرة كوحدة كان عاملا حاسما فى طغيان كيان الجماعة على كيان الفرد . بل أن الكيان الفردى والمبادأة الفردية لم يكن لها أدنى وجود ، وان تجاسرت وظهرت فإنها تسحق دون هوادة ودون أمل فى أن يعرض الفرد رؤيته الخاصة أو حلوله الخاصة لمواجهة بعض المواقف أو المشكلات . ولذلك لايكابر أحد فى أن الأسرة الصينية الكبيرة قد قتلت روح المبادرة الفردية ، وعوقت نمو الشخصية الفردية للإنسان الصينى ردحا طويلا من الزمن . ولكننا يجب مع ذلك ألا ننسى الجوانب الإيجابية لهذا النظام ، إذ من الواضح دون شك أن الأسرة الكبيرة قد حققت نوعا من التكافل الاجتماعى القوى . فالفرد فى جميع مراحل حياته يتمتع بنوع من التأمين الأساسى على حياته ، فى وسط جو يؤمن له العمل ويضمن له الغذاء وتلبية الاحتياجات المعيشية الأساسية (على قدر إمكانيات الأسرة بطبيعة الحال) . غير أن ميزة التضامن هذه تبدو بشكل أكثر إيجابية بالنسبة لتأمين الإنسان فى شيخوخته ، حيث يصبح عاجزا عن العمل وعن الكسب . فيجد فى أسرته المأوى والعيش الهادئ وأهم من ذلك الاحترام والتكريم .

وإزاء هذه الحقائق اتجه الزعيم الصينى الكبير صن يات صن فى العصر الحديث إلى بذل جهود جمة لتحرير شخصية الفرد وكيانه من هذه الرابطة الطاغية التى تفوق انطلاق امكانيات الفرد الخاصة . وتصاعدت تلك الجهود وتكثفت حتى وجدت أقصى ذروتها على يد ماوتسى تونج ، فكان قيام دولة الصين الشعبية بمثابة إعلان رسمى لتحلل هذا النظام الأسرى ذى السيطرة الجمعية الطاغية ، وبدء ظهور دور الفرد بشكل فعال على النطاق الخاص والعام على السواء[٢٢] .

---

(٢٢) تعد المؤلفات التالية من أهم ماكتب حول هذا الموضوع ، انظر :

— E. Stuarr Kirby (ed.), **Contemporary China** I, Hongkong, 1956.

—, «The Enigma of the Communes», in: E.S. Kirby (ed.) **Contemporary China III**, Honkong, 1960.

— D.E.T. Luard, «The Urban Commune», in: **The China** Quart-erly, 1960.

— C.K. Yang, **The Chinese Family the Communist Revolution**, Cambridge, Mass, 1959.

غير أنه حدث بعد ذلك فى سياق التطور الواسع النطاق الذى شهدته الصين بعد سيطرة ماوتس تونج ، حدث أن عادت الأسرة الكبيرة من جديد (ولكن مع بعض الاختلافات الطفيفة عن الصورة القديمة بطبيعة الحال) . وقد جعلت تلك الأحداث عالما متابعا للتغيرات العالمية فى دنيا الأسرة مثل ويليام جود ، جعلته يصف الأسرة الصينية بأنها تمثل متغيرا مستقلا فى عملية التطور الذى شهدته الصين إبان ثورة ماو وبعدها ، أى أن الأسرة كانت خلال تلك الفترة عاملا فاعلا ومؤثرا ، ولم تكن عنصرا تابعا أو متأثرا بما يدور من أحداث وما يجد من تطورات[٢٣] .

غير أن هذا الموقف نفسه يمكن أن يحتمل تفسيرا غير هذا . فهنا (وكذلك بالنسبة للتطورات التى طرأت على الاتحاد السوفيتى منذ الثورة البلشفية) نستطيع القول بأن المسئولين عن تلك المجتمعات لم يجدوا تحت أيديهم من سبب للتعرض لبقايا الأسرة القديمة (كنظام اجتماعى) بعد أن حدثت النقلة الكبرى فى تحول المجتمع من مجتمع اقطاعى بورجوازى إلى مجتمع اشتراكى وبعد أن تعدل نسق القيم فى المجتمع . ويبرر ذلك بوجه خاص أن التغيرات الجديدة استطاعت أن تطلق اعدادا كافية من البشر من أسر النظام الأسرى العتيق ليعملوا كقوة عاملة فى إنجاز واجبات الدولة بتنظيمها السياسى والاجتماعى الجديد . ومن المؤكد فى جميع الأحوال أن هناك عنصرا أساسيا لم يتراجع ولم ينتكس ذلك هو إضفاء الطابع العلمانى على شئون الأسرة وقضاياها وسيطرة الحكومات الجديدة على القواعد المنظمة لحياة تلك الأسرة . ذلك أن القواعد التى تحكم الشئون والمسائل الأسرية لم تعد كما كانت جزءا من الارث الماضى ، ولكنها باتت خاضعة كلية لما تصدره الأجهزة والمؤسسات الحكومية (العلمانية) الحديثة . ويرجع الفضل على أى حال إلى العالمين الكبيرين ماكس راينشتاين و فولفرام موللر فرانفلز فى إبراز هذه النقطة وإقامة الدليل عليها[٢٤] .

---

(٢٣) انظر ويليام جود الثورة العالمية والنماذج الأسرية ، مرجع سابق ، ص ص ٣١٩ - ٣٢٠ . وانظر كذلك المراجع التالية :

-- M.H. van der Valk, **An Outline of Modern Chinese Family Law,** Paking. 1939.
—, **Conservarism in Modern Chinese** Family law, Leiden, 1956.
—, W. Muller — Freienfest, **Zur revalutionaren Familiengeserzbung,** insbas. zum Ehegesetz der Volksrepublic China, vom. 1. Mai 1950, in: **Ius Privatum Gentium,** Tubingen, 1969, PP. 908 ff.

(٢٤) انظر حول هذه النقطة مؤلف فرانفلز الوارد ذكره فى الحاشية السابقة ، صفحات ٨٤٣ - ٩٠٨ . وانظر كذلك .
Max Rheinstein, «The Law of Family and Succession», in: A.N. Yiannopulos, (ed.), **Civil Law in the Modern World,** Baton Rouge, 1965, P. 30.

ومن الممكن بالنسبة للاتحاد السوفيتى الاستعانة بمؤلف رينيه كونيج ، دراسات فى علم الاجتماع العائلى . الذى سبقت الاشارة اليه . الطبعة الثانية ، كولونيا . ١٩٧٤ . ص ص ١٥٦ ومابعدها . وكذلك المراجع التى أوردها حول هذا الموضوع وعلى رأسها مؤلف للعالم الايطالى تومازو نابوليتانو عن الأسرة السوفيتية يعد اهم من تعرض لهذا الموضوع ، وقد صدر فى روما عام ١٩٤٦ .

٤ – هل الفروق بين الأسرة القديمة والأسرة الحديثة مجرد قضية حجم ؟

لقد تصور أصحاب كثير من الكتابات غير العلمية فى الأسرة (وكذلك – ومع الاسف – جانب من أصحاب المؤلفات العلمية) تصوروا خطأ أن الفرق بين أنماط الأسرة القديمة والأنماط الحديثة هو مجرد فارق فى الحجم ، بمعنى أن الأسرة القديمة كانت تتميز بوجه عام بكبر الحجم ، على حين أن الأسرة الحديثة تسير فى طريق التقلص . حقيقة أننا لو تذكرنا الأنماط الأسرية التى قرأنا عنها فى الصين القديمة أو عند بعض الشعوب المتخلفة لوجدناها تتميز عامة بكبر الحجم ، وأن هذا الحجم يزيد على أى حال السؤال العلمى الهام ، هل يحق لنا أن نقنع بهذا الفارق الشكلى والسطحى ، ونعتبره هو وجه الخلاف الأوحد بين الأسرة القديمة والأسرة الحديثة ؟ إننا إن فعلنا ذلك فإنما نحجب عن ناظرينا رؤية المشكلات الحاسمة فى حياة الأسرة عبر تاريخ تطورها الطويل ، ونضع الأمور فى غير نصابها ، وسوف تنتهى بنا ملاحظاتنا السطحية إلى نتائج سطحية أيضا . ولاشك أن هناك بعض الاعتبارات التى تدعونا إلى التزام جانب الحذر والتدقيق عند دراسة الفروق بين الأسرة القديمة والأسرة الحديثة ، نذكر منها على سبيل المثال :

(ا) يجب أن نحذر من الانزلاق إلى الاعتقاد بأن الشعوب القديمة والمتخلفة لم تعرف سوى الأشكال الكبيرة من الأسرة (الممتدة ، أو المشتركة .. الخ) . ذلك أن الشواهد التاريخية وكذلك الاعتبارات المنطقية تحملنا على الاعتقاد بأن تلك المجتمعات كانت تعرف إلى جانب الأشكال الكبيرة من الأسرة نسبة عالية (كانت تمثل غالبية الأسر فى غير قليل من المجتمعات) من الأسر الصغيرة الحجم ، التى تقتصر فى الأساس على الزوجين وأولادهما المباشرين . وكان هذا الشكل الصغير من الأسرة شائعا بدرجة أكبر بين البروليتاريا الزراعية والحضرية على السواء ، تلك الفئة التى لم تكن تملك شيئا يذكر من الثروة أو لم تكن تملك شيئا على الإطلاق . فافتقدت بذلك الأساس الاقتصادى الهام لتأسيس أسرة كبيرة الحجم[٢٥] . ومن الواضح أن تلك الملاحظ التى أكدتها الدراسات العلمية الحديثة بالنسبة للمجتمعات القديمة والتاريخية تصدق بنفس القدر – وبنفس المنطق – على مجتمعات العالم الثالث المعاصر . ويمكن القول بأن المجتمع الذى لايعرف سوى نمط واحد من الأسرة دون أى تنوع هو حالة استثنائية فى التاريخ الإنسانى . فتنوع أنماط

---

(٢٥) ناقش روبيه كونيج هذه النقطة بالتفصيل فى أكثر من مؤلف من مؤلفاته فى الاجتماع العائلى ، على رأسها كتابه « دراسات فى علم الاجتماع العائلى » ، و « الأسرة المعاصرة » .. الخ

الأسرة هو القاعدة ، وبمقتضى هذا التنوع كانت هناك أسرة كبيرة وأسر صغيرة فى الغالبية العظمى من الحالات .

(ب) وعلاوة على هذا فإن وجود أسر كبيرة من نوع تلك التى يسيطر عليها الأخ الأكبر لاينفى احتمال كون هذا الشكل يمثل مرحلة انتقال بين الكيانات الأسرية الكبيرة (الممتدة المتعددة الأجيال) وتحلل تلك الوحدات إلى أسر نووية صغيرة مستقلة ، وقد أشرنا إلى هذه الفكرة فى أكثر من موضع من تحليلاتنا السابقة .

(جـ) ثم أن هناك حقيقة قد تخفى أحيانا على أعين البعض ، وهى أن الأسر الممتدة ليس حتما أن تكون « كبيرة » الحجم ، بل إنها يمكن أن تتقلص ، فتكون صغيرة فعلا أحيانا[٢٦] . ويصدق نفس الكلام على غيرها من الجماعات القرابية ، كالعشائر على سبيل المثال . إذ نعرف تماما أن العشائر الجرمانية القديمة – كمثال – كانت فى أغلب الأحيان تصل إلى أحجام متقلصة غاية التقلص بسبب الحروب التى لاتنقطع فيما بينها وبين العشائر الأخرى . فكانت الحرب تؤثر عليها تأثيرا سلبيا من حيث الحجم ، وهذه حقيقة تاريخية ثابتة . أما بالنسبة لكثير من أنواع الأسر الممتدة التى تعيش حالة من التجوال والتنقل الدائم فإننا نجد الأسرة فى العادة لاتتجاوز أخوين بزوجاتهما وأولادهما ، ونلحظ هذه الظاهرة فى كثير من المناطق الصحراوية والرعوية مثل أغلب بلاد شمال أفريقيا على سبيل المثال (عند بدو ليبيا – والجزائر – والمغرب) .

(د) وهناك ظاهرة تاريخية أخرى مثيرة للاهتمام شهدتها الامبراطورية الرومانية القديمة ، كما شهدتها وتشهدها مجتمعات أخرى . وذلك أنه من الممكن أن يحدث بعد تقلص الأسرة الممتدة وتشتتها إلى أسر نووية مستقلة عن بعضها ، من الممكن حول إحدى تلك الأسر النووية فيما بعد أشكال أسرية جديدة ممتدة . فنحن نعرف أن انهيار الامبراطورية الرومانية قد انعكس – فى جانب منه – فى نمو الأسرة الممتدة حول النوايا الأسرية الصغيرة[٢٧] وكانت الأسرة الكبيرة تلك

---

(٢٦) وهذا هو ماحدث بالفعل لأسرة الزادروجا اليوغسلافية منذ زمن بعيد . فقد ظلت الأسرة – كنظام اجتماعى – محتفظة بأغلب ملامحها فى حين تقلصت فى الحجم بشكل ظاهر . وقد أوضح سيكار هذه النقطة بوضوح فى مؤلفه :

Emile Sicard, La Zadruga sud-slave dans l'évolution du groupe domestique, Paris, 1943.

(٢٧) انظر دراسة مفصلة لهذه الظاهرة فى المراجع التالية :

G. Duby, **La société au XIe et XIIe siecles,** Paris 1960.

— Philippe Aries, **L'enfant et la vie familiale sous l'Ancien Régime,** Paris 1960.

— Jean Gaudemet, **Les communautés familiales** (Paris, 1963).

— René Koenig, «Soziologie der Familie», in: R. Koenig, (ed.) Handbuch der empirischen Sozialforshung, Vol. II, Stutgart, 1969, PP. 172-305, especially, PP. 210.213.

تؤدى وظيفة حيوية لأفرادها ، إذ كانت بمثابة وسيلة لحمايتهم والدفاع عنهم ، وذلك بالنظر إلى انهيار السلطة المركزية فى روما وتدهور هيبة الدولة وتقصيرها فى تحقيق الأمن لأفرادها . فكانت تلك الأشكال الأسرية الجديدة بمثابة وحدات تنظيمية سياسية عسكرية فى المقام الأول . كذلك أشرنا فى موضع سابق من هذا الكتاب إلى أنه يحدث الآن فى بعض البلاد الصناعية الرأسمالية أن تتكون بشكل تلقائى أسر ممتدة كبيرة الحجم ، وذلك من أجل الحفاظ على ثروة ضخمة فى قبضة الأسرة وتضمن عدم تفتتها أو تسربها إلى الأغراب (ولنتذكر هنا أسرة فورد وأسرة كيندى ، وأسرة روتشيلد ... إلخ . لتتبين صدق هذه الملاحظة)[٢٨] .

(هـ) كما أنه ليس من الصحيح أن نتصور أن الأسرة النووية المعاصرة لابد حتما وأن تكون صغيرة الحجم ، ويجب أن نلاحظ أولا أن تحديد القرابة وتعريفها داخل هذا النمط الأسرى متنوع أشد التنوع ، وبدرجة لاتخطر ببال أكثر من يتعرضون للكتابة فى هذا الموضوع . (ليرجع القارئ إلى حديثنا السابق عن الأقارب الخطيين – المباشرين – والأقارب الجانبيين – غير المباشرين) . ثم أننا إذا اقتصرنا على الاستدلال على حجم هذا النموذج الأسرى من عدد الأولاد فقط . فإننا نجد أن عدد الأولاد فى الأسرة النووية يتفاوت تفاوتا كبيرا من مجتمع لآخر . ومن طبقة اجتماعية إلى أخرى داخل نفس المجتمع . فإذا كان متوسط عدد الأطفال فى الأسرة الأوربية الغربية اثنان ، فإنه يزيد عن ذلك كثيرا فى مجتمع كالمجتمع السعودى (يمكن أن يصل إلى اثنى عشر وخمسة عشر ، ولكن المتوسط العام يقل عن ذلك بطبيعة الحال ، ولكن ليس كثيرا) . ثم أننا نجد داخل المجتمع السعودى أن عدد الأولاد فى الأسر النووية يتفاوت من طبقة اجتماعية إلى أخرى بشكل ملحوظ ، ليس فى اتجاه واحد حسب ارتفاع المستوى الاقتصادى ، ولكن بالأحرى حسب درجة انفتاح الأسرة على الثقافة الغربية انفتاحا فعليا .

وأمامنا أمثلة أخرى يمكن أن نتكلم عنها بشكل أكثر دقةمن مجتمعات أخرى بسبب توفر الاحصاءات المفصلة . فنجد فى الولايات المتحدة على سبيل المثال أن صورة الأسرة النووية العادية كانت فى عشرينات هذا القرن هى تلك التى تضم عدا الزوجين طفلين اثنين فقط . غير أن هذه الصورة « النمطية » بدأت تتغير منذ عام ١٩٤٠ فى اتجاه الزيادة بحيث أصبح هذا الرقم أربعة أطفال وليس اثنين فقط .

وقد دفعت تلك الظاهرة عالم السكان الأمريكى البارز نورمان رايدار إلى القول بأن اختفاء الأسر الكبيرة ليس هو أحدث الظواهر فى دنيا الأسرة ، وإنما أحدث التطورات فى هذا الميدان هو

---

(٢٨) ناقش رينيه كونيج هذه الظاهرة فى كتابه دراسات فى علم الاجتماع العائلى ، مرجع سابق ، ص ص ١٣٣ ومابعدها

اختفاء الأسر النووية الصغيرة جدا ، فلم يعد هناك وجود لأسرة بلا أطفال[٢٩] أو أسرة ذات طفل واحد[٣٠]

جدول رقم (١)

متوسط حجم الأسرة فى الولايات المتحدة (ثلاثة أجيال)*

عدد الأطفال	تواريخ ميلاد الأمهات		
	١٨٩٠ – ١٨٩٤	١٩٠٧ – ١٩١١	١٩٢٦ – ١٩٣٠
صفر	٪٢١	٪٢٢	٪١١
١	٪١٥	٪١٩	٪١١
٢	٪١٨	٪٢٣	٪٢١
٣	٪١٤	٪١٥	٪٢٤
٤	٪١٠	٪٨	٪١٦
٥ فأكثر	٪٢٢	٪١٣	٪١٧

* المصدر : نورمان رايدار ، مرجع سابق ، صفحة ٢١ .

بينما نجد على خلاف هذا أن الوضع فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) قد ثبت على أسرة الطفلين فقط . ولكن لاشك أن هذا الوضع سوف يتغير يوما ما ، سواء فى اتجاه الزيادة أو النقصان ، ولكنه سيتغير حتما . وقد دلت أحدث الاحصائيات التى أمكننا الاطلاع عليها (والخاصة بعام ١٩٧٤) على أن الاتجاه يسير نحو التناقص . ويلاحظ اتجاه تناقص عدد الأولاد فى الأسرة النووية فى بعض المجتمعات الأوربية الاشتراكية ، حتى ولو لم ترتق إلى أعلى المستويات فى مضمار التصنيع ، كالمجر على سبيل المثال ، حيث تدل أحدث الاحصائيات على انخفاض عدد

(٢٩) المقصود بطبيعة الحال أن يكون عدم الانجاب اختياريا من جانب الزوجين ، أما عدم الانجاب الراجع الى سبب مرضى كالعقم مثلا فلا دخل للارادة الانسانية فيه . وبالتالى فلا يشمله الحديث هنا .

(٣٠) حيث تقول أرقام رايدار حقائق مذهلة فى هذا الاتجاه . انظر :

Norman B. Ryder, «The Reproductive Renaissance North of the Rio Grande»; in: **The Annals of the American Academy of Political and Social Science**, 1958, PP. 18-24 and P. 21.

وقد أصدر رايدار (بالاشتراك مع وستوف Eestoff – طبعة جديدة من هذه الدراسة . تتضمن البيانات الاحصائية الأحدث . انظر :

Ryder and Westoff, **Reproduction in the United States** 1965, Princeton, N.J., 1971.

الأولاد (برغم تعارض ذلك مع الاتجاهات الأيديولوجية التى تؤمن بها تلك المجتمعات ، وهو أمر يحتاج إلى من يفكر فيه ، ويستخرج منه دلالاته الهامة) .

(و) حتى لو سلمنا جدلا بأن الأسر فى الماضى كانت أكبر من حيث عدد الأولاد فيها (مع العلم بأن معدلات الوفيات العالية كانت تمتص جانبا كبيرا من هذه الزيادة ولكن هذه قضية أخرى) : حتى لو سلمنا بذلك فإن حقيقة المشكلة لاتكمن فى التعارض بين « لكبير» و « الصغير» ، وإنما وجه الاختلاف الأساسى بين الأسرة القديمة والأسرة الحديثة يكمن فى فروق بنائية . ونحن نذكر أنه يوجد حتى داخل أصغر الأسر حجما درجة عالية من التنوع فى العلاقات والأدوار . فلا يجب أن ننظر إلى القضية بهذا القدر من التبسيط المخل[٣١] .

جدول رقم (٢)

متوسط عدد الولادات الحية لكل زوجين بعد ٢٥ ١٩ سنة زواج فى جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية)*

التاريخ	
١٩٠٠	٤,١
١٩١٠	٣,—
١٩٢٠	٢,٣
١٩٣٠	٢,٢
١٩٣٥	٢,١
١٩٤٠	١,٨
١٩٤٥	١,٩
١٩٥٠	١,٩
١٩٥٥	٢,—
١٩٦٠	٢,١
١٩٧٠	١,٩

* المصدر :

Friedhelm Neidhardt, «Die Familie in Deutschland», in: **Karl M.** Bolte. F. Neidhardt und Horst Holzer, **Deutshce Gesellschaft im Wandel,** Vol. II Opladen, 1970, P. 47.

(٣١) انظر رينيه كونيج ، الأسرة المعاصرة ، مرجع سابق ، ص ص ٢٩ - ٣١ ، وكذلك ص ٤٥ والمراجع الواردة هناك .

جدول رقم (٣)

متوسط حجم الأسرة فى جمهورية المجر الديموقراطية

(بنسب مئوية)*

عدد الأطفال	١٩٤٩	١٩٦٠	١٩٧٠
صفر	٢٦,٨	٣٠,٨	٣٣,٧
١	٣١,٧	٣٤,٧	٣٥,٤
٢	٢١,٨	٢١,٦	٢٢,٤
٣	١٠,٢	٧,٧	٥٧,
٤	٤,٨	٢,٩	١,٧
٥ فأكثر	٤,٧	٢,٣	١,١
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠

* المصدر : كتاب الاحصائيات السكانية المجرية ، مصلحة الاحصاء ، بودابست ١٩٧٢ ، ص ٥٣ .

Magyar Statistika Zsebkonyv 1972 Statistikai Kiadovallalat.

٥ – الأسرة النووية :

تعد الأسرة النووية هى النمط المميز للأسرة فى المجتمع المعاصر ، حيث يلعب الدور الحاسم فى التأثير على كيانها وحياتها – إلى جانب العلاقات القرابية القائمة – العلاقة الوثيقة بين الزوجين[٣٢] وتعنى الأسرة النووية من الناحية البنائية تمركز الأسرة حول شخصيات : الزوج والزوجة والأطفال القصر ، حيث يرتبطون جميعا فى إطار علاقة مواجهة تتميز بكل سمات الجماعة الأولية[٣٣] . ومن الواجب ألا تقودنا تلك الصورة إلى الاعتقاد خطأ بأن هذا الوضع يعنى « عزلة » الأسرة النووية

(٣٢) انظر فيما بعد حديثنا عن بعض ملامح الزواج فى المجتمع المعاصر ، وهى الملامح التى تبرز الطبيعة الخاصة لهذه العلاقة بين الزوجين .

(٣٣) وقد أوضح العالم الأمريكى تشارلز كولى Codey مفهوم الجماعة الاولية منذ أوائل هذا القرن ، وذلك فى كتابه التنظيم الاجتماعى ، نيويورك ١٩٠٩ ، انظر كذلك نيقولا تيماشيف ، نظرية علم الاجتماع ، مرجع سابق ، ص ص٢١٨ ، ٢٢٠ .

بشكل كامل عن أنواع العلاقات القرابية الأخرى . ونحن نلح على تصويب هذا الخطأ لأنه ظل يتردد فى مؤلفات علم الاجتماع العائلى منذ عشرينات هذا القرن وحتى كتابات تالكوت بارسونز فى أيامنا هذه[٣٤] . ذلك أن البحوث الجديدة فى علم الاجتماع العائلى قد صححت كثيرا من الأفكار الخاطئة الشائعة حول الأسرة النووية المعاصرة . (وسنعود إلى عرض تلك التعديلات والملاحظات تفصيلا فى موضع لاحق من هذا الكتاب) .

حقيقة أن عزلة الأسرة النووية عن شبكة العلاقات القرابية تزداد بشكل لافت للنظر فى فترات التغير الاجتماعى السريع وفترات ازدياد الحراك الاجتماعى وانتشاره ، غير أن كثيرا من البحوث الحديثة التى أجريت فى عديد من المجتمعات المعاصرة قد أوضحت مع ذلك كيف تتكون بشكل تلقائى وبسرعة شبكات جديدة من العلاقات القرابية ، وتبدو تلك العلاقات القرابية فى بعض المناسبات الهامة فى حياة الأسرة كالأعياد ، وأعياد الميلاد ، والسبوع ، ومناسبات العزاء .. الخ . غير أن تلك العلاقات الجديدة لاتظهر فى مثل هذه المناسبات الاحتفالية فحسب ، ولكنها يمكن أن تظهر كذلك فى أمور اقتصادية بحتة ، كتبادل المساعدة المادية (الاقتراض مثلا) فى بعض الظروف .

ولكن النقطة الهامة فى هذه الظاهرة الجديدة أن تلك العلاقات تخضع لعملية انتقاء ارادية واعية من جانب الأطراف الداخلين فيها . بمعنى آخر أن أقارب الإنسان – فى ظل الأسرة النووية الحديثة – ليسوا موجودين هكذا ببساطة ، ولكن الفرد هو الذى يقرر وهو الذى « يختار أقاربه » . أى إننا نستطيع القول دون تجاوز أن العلاقات القرابية الحديثة تشبه إلى حد كبير علاقات الصداقة والمودة ، من حيث أنها تقوم على الاختيار الواعى وعلى قدر من الاستلطاف والميل ، وليست مجرد انعكاس بديهى لعلاقات دموية أو علاقات مصاهرة معينة .

كما يمكن القول بأن شبكة العلاقات القرابية أصبحت تشبه إلى حد كبير عملية إنجاب الأطفال . فلم يعد مجىء الأطفال مجرد نتيجة مباشرة . لاتصال جسدى بين الرجل والمرأة ، ولكن الأسرة الحديثة فصلت فصلا كاملا بين هذا الاتصال والإنجاب . بحيث أصبح الطفل يأتى بناء

---

(٣٤) انظر على سبيل المثال :

— Talcott Parson and Robert F. Bales, **Family, Socialization and Interaction Process**, Glencoe, III., 1955, Chap.2.

— R. Koenig, Soziologie der Familie, op. cit., PP. 182-183, P. 215 and PP. 220 ff.

— Leopold Rosenmary, «Soziologie des Alters», in: R Koenig (ed.), **Handbuch der empirischen Sozialforschung**, Vol. II, Stuttgart, 1969, PP. 328 ff.

على رغبة والديه ، فهما اللذان يقرران كم طفلا ينجبان ومتى يأتى كل طفل منهم إلى الحياة .. إلخ .

إننا لو نظرنا إلى الأمور هذه النظرة الصحيحة ، فسوف تتغير بالتالى نظرتنا إلى الأسرة الكبيرة النووية ، وتصبح هذه الفروق أقل حدة عن ذى قبل وأكثر مرونة . وقد سبق أن أشرنا فى موضع سابق إلى نموذج الأسرة الكبيرة الهندوسية ، ورأينا كيف أن الشباب الذين يتزوجون حديثا ينفصلون عن حياة الأسرة الكبيرة ، ثم يعودون بعد وفاة الأب – رب الأسرة – إلى المعيشة معا من جديد . ولذلك يوصف هذا الشكل من الأسر بأنه « أسرة ممتدة وظيفية » بمعنى أنها تضخمت فى مرحلة معينة من عمرها لأداء وظيفة أو وظائف معينة لأفرادها . ولذلك فإن حكم الباحث على مثل هذا النوع من الأسر سوف يتأثر بالقطع بالمرحلة أو الفترة التى شاهدها فيها ، فلو شاهدها فى مرحلة التفرق والانقسام فإنه سيصدر حكما أو سيضعها فى إطار تصنيفى يختلف عما لو شاهدها فى مرحلة التجمع والائتلاف .. وهكذا . لذلك يجب أن يعى الباحث جيدا هل حالة الأسرة التى يلاحظها عليها الآن تمثل طورا معينا فى حياتها ، تسبقه أطوار وتعقبه أطوار ، أم أنها تحتفظ بهذه الحالة معظم حياتها . وبدون هذا التدقيق يمكن أن تقودنا ملاحظاتنا للأسرة إلى أحكام وتصنيفات خاطئة .

الخلاصة : أن الأسرة النووية يمكن أن تكون بمثابة « مرحلة » فى حياة الأسرة الكبيرة ، ومن ثم ينتفى التناقض المزعوم بين هذين الشكلين . والغريب أن تلك النقطة كانت واضحة إلى حد كبير فى عينى بعض أتباع الاتجاهات التطورية فى القرن التاسع عشر ، حيث أدركوا أن الأسرة الكبيرة تنطوى على عدد من « الأسر الخاصة المستقلة » على حسب تعبيرهم فى تلك الأيام . ونحن ندرك أنه مهما تضخم حجم الأسرة الكبيرة ، ومهما اختلفت أشكالها أو مسمياتها ، فإن الفرد الذى ينتمى إليها يعرف على وجه الدقة الأسرة النووية التى ينتمى إليها . فهو فى جميع الأحوال ابن فلان وفلانة (أى أنه عضو فى الأسرة النووية الفلانية) ، ثم هو بعد ذلك عضو فى كيان أسرى أكبر . أى أن التفاوت الوظيفى البنائى بين الأسرة النووية والأسرة الكبيرة (المتعددة الأجيال أو غيرها) واضح وجلى لكل عضو فى المجتمع . وسنعود إلى زيادة هذه النقطة إيضاحا فيما بعد .

ورغم كل ما عرفناه ونعرفه عن تنوع الأنماط الأسرية ، فإنه يبدو مؤكدا أن الأسرة النووية هى أكثر تلك الأنماط شيوعا ، فهى بحق ظاهرة إنسانية عالمية . إن مكانتها فى المجتمع قد تتفاوت من مرحلة تاريخية لأخرى ، ومن مستوى اجتماعى لآخر ، وحجمها قد يزيد أو ينقص (كأن تضم زوجة أو عدة زوجات) ، ولكنها هى الظاهرة الاساسية عندما نكون بصدد الحديث عن الأسرة

الإنسانية عموما[٣٥] . وحتى فى الحالات التى يصعب فيها التعرف على كيان واضح للأسرة النووية (فى حالة السكنى عند أم الزوج) فإننا نرى بوضوح أن يتردد الزوج بانتظام ليلا على زوجته (حيث تقيم عند أهلها) ، ويقضى معها الليل ثم يتركها فى الصباح ليعود إلى عشيرة أمه ، ولذلك يوصف هذا الشكل من أشكال الزواج باسم « زواج الزيارة » . ويعمل الأب فى هذه الحالة على الحصول على أطفاله من خلال العمل فترة من الوقت لدى أسرة زوجته أو دفع مبلغ معين من المال اليهم[٣٦] .

٦ – المكانة الموروثة والمكانة المكتسبة :

فى رأينا أن التمييز بين المكانة الموروثة والمكانة المكتسبة أهم بكثيرمن كل التصنيفات والتحديدات التى ناقشناها فيما سبق (سواء من الأسرة الممتدة إلى الأسرة النووية أو من الأسرة الكبيرة الحجم إلى الأسرة الصغيرة) . فهذان النموذجان التطوريان – اللذين يرجع الفضل إلى الانثروبولوجى الأمريكى رالف لنتون فى تحديدهما – يبدوان لنا أبعد دلالة وأهم تأثيرا[٣٧] . وخلاصة هذا التصنيف أن هناك مجتمعات يتحدد فيها وضع الفرد من خلال وضع أسرته ، وهناك مجتمعات أخرى يتحدد فيها وضع الفرد من خلال انجازه الشخصى . ولا شك أننا لا يجب أن نأخذ هذا التصنيف بشكل صارم ، لأن هناك كثيرا من المجتمعات التى تتحدد فيها مكانة الفرد – كلا الطريقين ، أو أن وضع أسرته هو الذى يعطيه دفعة قوية لتحقيق مكانة (مكتسبة) رفيعة ، وهكذا . ولكنه مؤشر عام يساعدنا على وضع أيدينا على بعض ملامح الحياة فى هذا المجتمع أو ذاك من خلال معرفة الاتجاه السائد فى تحديد مكانة الفرد . (وتلك ملاحظة عامة تصدق تقريبا على كافة التصنيفات فى علم الاجتماع . كالتمييز بين الريف والحضر مثلا ..) وتحت أيدينا شواهد على أنه كانت هناك حالات فى العالم القديم وفى العالم الثالث كانت أوضاع غالبية الأفراد تتحدد فى ضوء مكانة الأسرة ، ولكن كان إلى جانب تلك الغالبية فئة أقل عددا استطاعت أن تنتزع

---

(٣٥) انظر جورج ميردوك ، البناء الاجتماعى ، مرجع سابق ، الفصل الأول . وان كان يجب أن نلاحظ أن الأسرة النووية قد يصعب الامساك بها والتعرف عليها فى حالة واحدة وأعنى فى حالة السكنى عند الأم ، وليس المقصود السكنى عند الأم الزوجة . وانما عند أم الزوج . انظر كونيج ، المرجع السابق . ص ٤٧ .

(٣٦) انظر المرجعين السابقين ، ميردوك وكونيج ؛ نفس الموضع .

(٣٧) انظر : Ralph Linton, **The Study of Man**, New York, 1936.

وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية ، رالف لنتون ، دراسة الانسان ، ترجمة عبد الملك الناشف ، المطبعة العصرية (بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر) ، بيروت ، ١٩٦٠ . الفصل الثامن .

لنفسها اعتراف وتقدير المجتمع من خلال انجازات فردية ، أولئك ممن نسميهم العصاميين أو نحو ذلك . أى الذين جازوا أوضاعا ومراتب اجتماعية لم تكن « تؤهلهم » لها فى الأصل ظروفهم الأسرية أو البيئات التى ولدوا فيها . والعكس يمكن أن نقوله أيضا ، ففى بعض المجتمعات الصناعية الحديثة (الرأسمالية والاشتراكية على السواء) ، حيث تسود المكانة المكتسبة ، عدد من الأفراد الذين يتحدد وضعهم الاجتماعى من خلال انتمائهم الأسرى ، وليس من خلال إنجازهم الشخصى .

ولكن المبدأ العام يظل مع ذلك صادقا وما عدا ذلك يعد من قبيل الاستثناء . ومؤداه : أن البلاد الصناعية الحديثة قد شهدت عديدا من التطورات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية التى أدت فى النهاية إلى تحرر شخصية الفرد إلى حد كبير من قيود التكوينات الاجتماعية التى كانت تحدد حركته فى الماضى ولم يظهر المجتمع بمفهومه العلمانى الحديث إلا بعد أن تخلص الفرد من قيود الانتماء الأسرى أو قيود النوع .. الخ . (بالمفهوم الذى حددناه هنا)[٣٨] . وكان الوجه الآخر لهذا التطور أن تقلصت سيطرة الأسرة ، وبرزت سيطرة الدولة على حياة أبناء المجتمع باعتبارها المنظمة الأساسية التى تنتظم حولها كافة الأنشطة الاجتماعية . وكان من آثار ذلك ان احتكرت الدولة لنفسها سلطة إصدار التشريعات المنظمة للأسرة والزواج . وإن كنا نعلم أن أغلب الدول الإسلامية ماتزال تنظم شئون الأسرة والزواج وفق الشريعة الإسلامية (لرعاياها المسلمين طبعا) ، ولم تتخذ تلك التشريعات طابعا علمانيا فيها .

ولم يكن من المتصور قيام الدولة ،وازدهارها كمنظمة اجتماعية دون تحرر الفرد . بحيث أن الحياة الاجتماعية أصبحت تمثل اليوم حصيلة تفاعل بين ثلاثة أطراف مؤثرة هى : الجماعات الاجتماعية (ومن أبرزها الأسرة) ، والفرد ، والدولة . وعلى هذا فإننا يمكن أن نرتب على ذلك حقيقة هامة هى : أن الأسرة مازالت حتى الوقت الحاضر تساهم بشكل جزئى – وربما غير مباشر – فى التأثير على وضع الفرد فى المجتمع وعلاقته بالدولة ، وذلك من خلال الدور الأساسى التى تضطلع به الأسرة فى تشكيل شخصية الفرد . فشخصية الإنسان الثقافية الاجتماعية تتكون وتأخذ ملامحها وسط الجماعات التى ينتمى إليها ، وأهمها الأسرة .

ولكننا ألا نتصور خطأ أن الأسرة كوسيط أساسى فى تنشئة الطفل هى التى تصنع له قيمه وترسم له سلوكه وأفعاله وتحدد له استجاباته . إنما هى فى الحقيقة مجرد وسيط فى نقل تراث

---

(٣٨) ليكن واضحا اننا لانقصد انفكاكه من الأسرة أو خروجه عنها فهذا هدم للمجتمع الانسانى ، ولكن المقصود التخلص من ارتباط مكانة الفرد بمكانة أسرته .

المجتمع – بقطاعاته المختلفة – إلى هذا العضو الجديد . وقد فصل بوتومور هذه النقطة حيث قال إن أهمية الأسرة فى عملية التنشئة الاجتماعية من طبيعة خاصة ومتميزة تحتاج إلى أن نلاحظها بدقة ونتأملها بتعمق . فالأفراد يظلون لفترة طويلة نسبيا من حياتهم دون النضج الضرورى ، لذلك فهم بحاجة خلال هذه الفترة إلى الرعاية والتنشئة ، وتلك هى الوظيفة الاساسية للأسرة النووية ، والواقع أن أداء هذه الوظيفة لايتوقف كثيرا على شكل الأسرة أو نطاق القرابة أو عادات الزواج أو نمط مراقبة السلوك الجنسى أو حتى أداء الأسرة لوظائف إضافية . فكل هذه الأمور تختلف – أساسا – بالاختلاف الذى نلمسه فى النظم الاجتماعية الأخرى . بل إن الوسائل التى من خلالها تؤدى الأسرة النووية وظيفتها الأساسية تتوقف أيضا على طبيعة العناصر الأخرى فى المجتمع . فالأسرة تتولى أولا تنشئة الطفل ولكنها لاتخلق – بذاتها – القيم التى تلقنها إياه ، ذلك لأن هذه القيم آتية فى الأصل من الدين والأمة والطبقة الاجتماعية وغيرها من المصادر .

ومن هنا يمكن القول بأن الطابع الخاص للأسرة النووية فى أى مجتمع يتحدد من خلال النظم الأخرى السائدة فيه ، وعكس ذلك غير صحيح . كذلك يمكن القول أن التغير الاجتماعى يطرأ أولا على النظم الاجتماعية الأخرى ، وما تلبث الأسرة أن تتغير كاستجابة لذلك .

ويذهب بوتومور إلى أن وجهة النظر هذه لاتقتصر على الأسرة النووية وحدها ، ولكنها تنسحب بنفس الشكل على كل الجماعات الأولية فى المجتمع التى تساهم بدور واضح فى تنشئة الفرد . وذلك على خلاف ماذهب إليه تشارلز كولى فى تعريفه للجماعة الأولية ، فهو يصف جماعات الأسرة والجوار وغيرها بأنها أولية (أو أساسية) : « أولية بمعان متعددة ، أهمها أنها أساسية فى تكوين طبيعة الفرد الاجتماعية ومثالياته ... ، وكذلك من حيث أنها لا تتغير بنفس درجة العلاقات الأخرى ، ولكنها تمثل مصدرا دائما نسبيا تنبع عنه هذه العلاقات .. وهى مصدر الحياة لا بالنسبة للفرد فحسب ، بل وللنظم الاجتماعية أيضا »[٣٩] . والواقع أن دراسة الأسرة

---

(٣٩) انظر مؤلف كولى المعنون : التنظيم الاجتماعى ، ١٩٠٩ ، ص ٢٣ ومواضع أخرى متعددة . ويعلق بوتومور على ذلك بأن كولى وبعض علماء الاجتماع المحدثين يرون أنه من الممكن الانتقال مباشرة من دراسة الجماعات الصغيرة إلى دراسة المجتمعات الشاملة . وتلك فكرة ترتبط بالنظرة إلى الجماعات الصغيرة باعتبارها تؤثر فى الحياة الاجتماعية تأثيرا بالغا . ولكن الشواهد كلها تقول بعكس ذلك تماما . فمن وجهة النظر التاريخية نلاحظ أن المجتمع هو الذى يشكل الجماعات الصغيرة لا العكس فالأسرة الغربية الحديثة – مثلا – هى نتاج التصنيع . كما أن التحول الذى طرأ على مجتمع القرية يرجع إلى عوامل التغير الكبرى فى المجتمع ككل . ويبدو ذلك واضحا فى الدراسات العديدة التى تناولت مجتمع الهند .

انظر بوتومور ، تمهيد فى علم الاجتماع ، ترجمة محمد الجوهرى وآخرين ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، الفصل السادس .

النووية تكشف عن زيف القضية التى ذهب إليها كولى . فالأسرة تنقل فيما تحددت قبلا فى مكان آخر . فهى إذن مجرد وسيط وليست هى المصدر . وقد تعاوننا الجماعات الأولية على دراسة آثار القوى الاجتماعية الأساسية ، ولكنها مع ذلك لاتستطيع تفسير هذه القوى ذاتها تفسيرا شاملا يكشف عن اتجاهاتها ومساراتها[٤٠] .

وهكذا يمكن أن نلخص القضية بأن الأسرة المعاصرة تتأثر أعمق التأثر ببناء المجتمع الصناعى السائد اليوم . وهذا المجتمع بطبيعته يقوم فى الأساس على الانجاز الفردى ، غير أن الأسرة تمد المجتمع دائما بخامات بشرية جديدة ، فالأسرة هى الوعاء الوحيد لتنشئة الأطفال (فيما عدا استثناءات قليلة لايعتد بها ، وسنعود إلى الإشارة إليها فيما بعد) .

ومن هذا الفصل نخلص إلى أن المجتمعات الإنسانية – على اختلافها وتنوعها – توجد فيها أنماط مختلفة من الأسرة . فالأسرة النووية باتت هى النمط السائد فى العالم الصناعى (الشرق والغربى على السواء) على حين أن بلاد العالم الثالث سواء فى آسيا أو أفريقيا أو أمريكا اللاتينية (ولكن بشكل جزئى) ماتزال يسيطر عليها أنواع من الأسرة الممتدة . وما زال الانتساب إلى الأم موجودا – ولو بشكل نادر – فى كل بقاع العالم ، بل أنه موجود اليوم عند بعض قبائل الهنود الحمر التى تعيش اليوم فى قلب الولايات المتحدة . كما تتعدد وتتنوع أنماط الأسرة فى الدول الصناعية وتتعايش بعضها مع بعض ، حيث رأينا كيف أن الظروف الاجتماعية المعاصرة فى تلك البلاد قد تقود – تلقائيا – إلى تكون أشكال مستحدثة من الأسر الممتدة .

---

(٤٠) انظر بوتومور ، المرجع السابق ، الفصل العاشر ص ص ٢٨٢ – ٢٨٣ .